وزارة الثقافة
مكتبة الأسرة الأردنية
القراءة للجميع 18
اليوبيل الفضي ١٩٩٩-٢٠٢٤

كارول كرستين

عظماء في عصرنا

ترجمة: عامر الصمادي

رقم الإصدار: 986 / 2024
تاريخ وحضارة

عظماء في عصرنا

البرنامج الوطني للقراءة

مكتبة الأسرة الأردنية

سلسة تصدرها وزارة الثقافة الأردنية منذ العام (2007)، ضمن البرنامج الوطني للقراءة. وتهدف (مكتبة الأسرة الأردنية) إلى نشر المعرفة وإثراء مصادر الثقافة وتنمية التفكير الناقد ورفع مستوى الوعي لدى الأسرة الأردنية من خلال توفير الكتاب بجودة عالية وبأسعار رمزية. تضم السلسة ستة حقول أساسية: دراسات أردنية، تراث عربي وإسلامي، آداب وفنون، فلسفة ومعارف عامة، علوم وتكنولوجيا، والأطفال.

المملكة الاردنية الهاشمية

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2024 / 11 / 6488)

كرستين، كارول

عظماء في عصرنا/ كارول كرستين .

ترجمة: عامر عثمان محمد الصمادي

-ط٣، وزارة الثقافة، 2024

ر.إ.: (2024/11/6488)

الواصفات: / التراجم// السيرة الذاتية// الرجال// الحضارة الغربية

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعتبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية.

ISBN (978-9923-59-161-1) (ردمك)

الطباعة

arwa PRINTING PRESS

مطابع أروى

عظماء في عصرنا

تأليف: كارول كرستين

ترجمة: عامر عثمان الصمادي

الفهرس

تقديم بقلم: د. نبيل الشريف 7

مقدمة المترجم 11

هيربرت جورج ويلز 15

سيجموند فرويد 25

المهاتما غاندي 35

ماريا مونتسوري 49

ألبرت شويتزر 59

بابلو بيكاسو رويز 73

شارلي شابلن 83

جومو كينياتا 93

جون كيندي 105

مارتن لوثر كينج 119

We Become What We Think About

الإهداء

إلى الذين كانوا عظماء بأفعالهم ولم يذكرهم التاريخ.

إلى شهداء بلادي

تقديم

بقلم: د. نبيل الشريف

إنه لمن دواعي سروري، أن أقدم للقراء الكرام هذا الكتاب القيم المسمى (عظماء في عصرنا) للمؤلفة كارول كريستين، والذي قام بترجمته الإعلامي عامر عثمان الصمادي، ولا شك أن الحديث عن العظمة والعظماء حديث شجي، وله موقع خاص في النفوس.

فالعظماء هم المشاعل التي تضيء لنا طريق الخير والنجاح، وهم النموذج الأسمى للتضحية والعطاء، وتقديم مصلحة المجتمع والأمة على المصلحة الفردية، وللعظماء أيضاً أياد بيضاء لا تنسى، وإسهامات خالدة طيبة في سجل العطاء الإنساني، لهذه الأسباب مجتمعة، ولغيرها من الأسباب، تهفو النفس البشرية للاستزادة من تاريخ حياة العظماء، ولمعرفة الطرق التي سلكوها، والمصاعب التي اجتازوها لتحقيق عظمتهم وتميزهم في مختلف مجالات الإبداع،

ولترك بصماتهم الخيرة بأحرف من نور على جبين البشرية.

ورغم التحفظ على قائمة العظماء التي شاءت المؤلفة أن توردها، مستثنية بذلك النابغين والمبدعين من أبناء الأمة العربية والإسلامية، فإن هذا العمل مهم، لأنه يقدم تسجيلاً لواقع السيرة الذاتية لنفر من العظماء والخالدين في مختلف جوانب العطاء الإنساني، فثمة زعماء مناضلون من أجل استقلال بلادهم، أو أبناء جلدتهم، من مثل الزعيم الكيني جومو كينياتا، وداعية التحرر الهندي المهاتما غاندي، والمناضل الأسود مارتن لوثر كينغ، وثمة علماء وأطباء من مثل فرويد رائد طريقة التحليل النفسي، وألبرت شويتزر الطبيب والمفكر الذي ساهم في محاربة المرض في أفريقيا، وهيربرت جورج ويلز الذي تنبأ بكثير من المنجزات العلمية من خلال كتاباته.

وهناك أيضًا الفنانون والمعلمون أمثال ماريا مونتسوري التي تعد واحدة من رائدات تعليم الأطفال في العالم، والفنان العبقري بابلو بيكاسو صاحب المدرسة التكعيبية في الفن الحديث، ولا شك أن التوقف عند المعالم البارزة في السير الذاتية لهؤلاء المبدعين يقدم لنا العبرة والعظة، ويجسد أمامنا صوراً خالدة في سفر الإبداع الإنساني.

إن الجهد الطيب الذي بذله المترجم السيد عامر عثمان الصمادي، يستحق أيضـًا وقفة ثناء وإشادة، فقد نجح المترجم في نقل النص بلغة عربية سلسة، استطاع من خلالها أن يجسر الهوة الحضارية بين النص الأجنبي وبين المتلقي العربي.

وقد عرفت السيد عامر الصمادي كأحد طلابي النابغين أيام تدريسي في قسم اللغة الإنجليزية بجامعة اليرموك، وقد استطاع أن يشق طريقه في الحياة الأكاديمية، ومن ثم الإبداعية والإعلامية بثقة واضحة وحماس متقد، ولا يساورني شك في أن السيد الصمادي سيواصل إبداعه وعطاءه في كل ما سيضطلع به من مسؤوليات في المستقبل، أشد على يده وأتمنى له اطراد النجاح.

مقدمة المترجم

لطالما شغفت بالعظمة والعظماء من الرجال الذين استطاعوا أن يتركوا بصماتهم الواضحة على شعوبهم وبلدانهم، وبعضهم تجاوز ذلك إلى العالم أجمع، فكان شخصية مؤثرة على مستوى البشرية جمعاء.

ولطالما سألت نفسي، ما الذي جعل من هؤلاء أناسًا عظماء؟ ما هي صفاتهم العظيمة، وخصالهم الجليلة التي سببت لهم كل هذه الشهرة؟ حتى أن واحداً منهم كان يجعل الناس يصومون عن الطعام والشراب بكلمة واحدة منه، وهما حاجة إنسانية لا غنى للبشر عنها، الجواب بكل بساطة هو التضحية والمحبة، فمن يحب الآخرين ويضحي لأجلهم لا بد أن يحبه الآخرون ويبادلوه شيئًا مما أعطاهم، وهكذا يعظم الرجال.

في هذا الكتاب، حديث عن عشرة شخصيات اعتقدت الكاتبة أنها شخصيات أثرت في شعوبها، وغيرت الكثير من الأمور التي كانت سائدة في عصرها، ونظراً لأن الكاتبة غربية الحضارة والثقافة والهوى،

فإنها لم تستطع التخلص من عقدة التعالي على الآخرين إلا فيما ندر، فهي تختار ثماني شخصيات من أصل عشر، اعتبرت أصحابها عظماء بلدانهم وهؤلاء الثمانية هم من الحضارة الغربية، ولم تختر من الشرق سوى غاندي من الهند، واختارت جومو كينياتا من أفريقيا، ويبدو أن الكاتبة تناست أن الشرق في الأصل هو موطن العظماء من الرجال، وتاريخنا العربي قديمـًا وحديثـًا حافل بالعظماء الذين قدموا من التضحيات ما يعجز عن وصفه قلم أو لسان، ولم أستغرب شخصيـًا عدم إشارة الكاتبة إلى أي من عظماء الشرق، لأنها كما قلت، تستند إلى حضارة أساسها النظرة الفوقية إلى الآخرين، ومحاولة طمس إنجازاتهم الحضارية، وعدم الاعتراف لهم بالتميز في أي مجال من مجالات الحياة.

على كل حال، يستطيع القارئ العربي أن يدرك ذلك من خلال مطالعاته الذاتية، ومعرفته بعظماء أمته، وقد أردت من ترجمة هذا الكتاب اطلاعه -أي القارئ العربي- على عدد من الرجال المميزين، لعل في ذلك حفزا وتشجيعا لنا ولأجيالنا القادمة على الاقتداء بالعظماء من الرجال من أية ملة كانوا، فنعود كما كنا ذات يوم أمة عظيمة، تكون العظمة فيها سلوكـًا يوميـًا، وليس أمراً مستهجنـًا،

وسوف أحاول في كتاب لاحق -بإذن الله-، تقديم شخصيات عظيمة من العرب والمسلمين، ليقارن أبناؤنا بينهم وبين غيرهم من عظماء الأمم، وليتعرفوا عن قرب على عظماء هذه الأمة.

عامر الصمادي

هيربرت جورج ويلز

في بداية هذا القرن، كان الكتاب الإنجليز يتمتعون بقدر كبير من الاحترام، ليس فقط في بلادهم، بل في جميع أنحاء العالم، إذ أن الناس كانوا يقرأون الكتب والصحف أكثر من أي وقت مضى، وكانت أجور الكتاب مرتفعة، ويحظون بالتقدير اللازم، ويشير الناس إليهم أينما ذهبوا، فقد كانوا شخصيات مشهورة.

وهناك أسماء عظيمة كثيرة من أسماء كتاب تلك الفترة مثل: توماس هاردي، وجوزف كونراد، وهنري جيمس، ويمكن أن نطلق على كثير منهم رجال الكلمة، ذلك أن معظمهم قد درس الشعر القديم، وتعلموا لغات مثل اللاتينية واليونانية، وهذه هي المواضيع التي كان يدرسها المثقف، ومع ذلك، فقد كان هناك كاتب واحد يعرف القليل من هذه الأشياء، كاتب علم نفسه بنفسه، وكافح كفاحاً مريراً كي يحصل أصلا على تعليمه وثقافته، كان مجاله في العلوم، وبشكل خاص كان مهتماً بالأحياء (البيولوجي)، كان اسم هذا الكاتب هو "هيربرت جورج ويلز" (Wells Herbert George).

ولد "ويلز" في عام 1866، في الوقت الذي بدأت فيه الاكتشافات العلمية تغير العالم، فقد أصبحت الآلات تقوم بالعمل في المزارع

والمصانع، وأصبحت السفن والقطارات تسير بقوة البخار، فأصبح بإمكان الناس التنقل لمسافات أبعد وأسرع، والفضل يعود إلى هذه الآلات الميكانيكية التي بدأت تسيطر على العالم الذي نعيش فيه.

اتجه الناس نحو العلم كي يجدوا إجابات لأسئلتهم، كما فعلوا سابقـًا واتجهوا نحو الدين، ففي إنجلترا، كان قليل من الناس مقتنعين بالإجابات التي تقدمها المسيحية، وقد اقتنعوا بأن العلم سيقدم إجابات شافية للأسئلة التي تتعلق ببدء ونهاية الحياة البشرية على الأرض، لذلك آمنوا بالعلم. لكن عدداً قليلاً من الكتاب تفهموا التغيرات العظيمة القادمة، فالعلم يمكنه الآن أن يجعل حياة الإنسان أسهل وأغنى وأكثر راحة، وبالعلم يقضي الإنسان على الأمراض، ويكسب الحروب، لكن ماذا يعني كل ذلك لمستقبل الإنسان؟

بما أن "هـ.ج. ويلز" تعلم أن يفكر بطريقة علمية، فقد تطلع إلى مستقبل البشرية في ضوء المعرفة العلمية، فعندما حاول أن يتخيل أول رحلة إلى القمر، أو حربـًا بين الكواكب، تخيل أحداثا ممكنة من الناحية العلمية، وبما أن العلم قد تطور إلى هذا الحد، فمن الممكن أن يتطور أكثر، مما جعل كتبه أكثر متعة، كان بإمكانه أن ينظر إلى

المستقبل، فأخذ قراءه معه ليشاركوه ذلك المنظر الرائع.

كان "ويلز" رجلاً شجاعـًا طموحـًا، استطاع أن يحصل على أفضل ما يمكن الحصول عليه من طفولة صعبة، فقد كان والداه يعملان خادمين في بيت ريفي جميل جنوب إنجلترا، وبعد أن ولد طفلهما افتتحا متجراً لفترة من الوقت، لكنه لم يكن ناجحـًا في ذلك الحين، وعلى الرغم من أنهما كانا يعلمان أن ابنهما ذكي بشكل غير عادي، إلا أنهما لم يفهماه، لأن كل ما كانا يتمنيانه له هو أن يحصل على عمل ثابت وأجر منتظم.

عندما بلغ "بيرتي" -وهو اسم التحبب- سن الثالثة عشرة، أرسل مثل إخوته ليعمل في متجر وتعلم التجارة، لكن ذهنه لم يكن منصرفـًا إلى البيع والشراء، فقد كان يقرأ كتبا في الوقت الذي يتوجب عليه فيه أن يعمل، فلا أحد من زملائه يشاركه طموحه.

لقد كانوا يضحكون من صبي المتجر الصغير الذي يقضي وقته في القراءة والمناقشة، ومع أنه لم يكن يتقن شيئـًا آخر، إلا أنه لم يستطع أن يعتاد على حياة المتجر، فازدادت حالته سوءاً، إلى أن هرب أخيراً عائداً إلى أمه التي وجدت له عملاً آخر، ثم عملاً آخر، لكن في كل مرة

كان يحدث نفس الشيء.

لم يكن الغلام مكسبًا، فهو يكره العمل، وأصحاب العمل لا يسرون به، ومع ذلك، فقد كان أبواه يصران على تعلمه التجارة خوفًا من أن يكون فاشلاً.

كاد الإحباط يتسرب إلى نفس "ويلز"، لكن أخيراً، وعندما كان في السابعة عشرة، وجد لنفسه عملاً كمعلم متدرب في إحدى المدارس، حيث يستطيع أن يتابع مشوار حياته بتعليم الصغار، وتعليم نفسه في آن معًا.

واستطاع أن يستفيد من وقته جيداً هناك، فاجتاز امتحانًا إثر امتحان، حتى تمكن من الحصول على مقعد في جامعة لندن لدراسة العلوم، وحتى ذلك الوقت، كانت حياته ما تزال صراعًا مريراً، إذ لم يكن لديه المال الكافي لإعالة نفسه، إضافة إلى سوء حالته الصحية، ففي كثير من الأحيان يكون مريضًا، وفي بعض الأحيان يقترب من الموت، وفي أغلب الأحيان لم يكن يملك (بنسًا) أو (بنسين)، ولولا مساعدة أصدقائه له لمات جوعًا.

كانت روح "ويلز" قوية صلبة، على الرغم من أن جسده لم يكن

كذلك، اكتشف في لندن عالماً مليئاً بالناس الطيبين، وأفكارا جديدة طالما حلم بها أيام عمله في المتجر، وأصبح لديه أصدقاء يشاركونه تقدمه العلمي، وتزوج بعدها، وأصبح يعيل زوجته من عمله بالتدريس والكتابة، وأي عمل آخر يمكنه القيام به.

وقد أصبح كاتباً متفرغاً للكتابة بالصدفة، إذ أن صحته قد بدأت تتدهور، وصدره أصبح ضعيفاً، حتى أنه غالباً ما كان يسعل دماً، فكان لا بد له من فترة راحة طويلة من العمل، وبهذه الطريقة اكتشف موهبته الفذة في كتابه القصة.

وقصص "ويلز" ممتعة ومثيرة، وذات مغزى أيضا، فقد أراد أن يعبر عن وجهة نظره في الحياة، وأن يغير أشياء كثيرة في العالم، لأن العالم كما بدا له يتجه نحو الدمار، فأراد أن يهيء الناس لما قد يجلبه العلم من الناحيتين الإيجابية والسلبية (الخير والشر)، وآمن بأن المعرفة العلمية إذا ما استخدمت كما ينبغي فإنها سوف تعطي الإنسان مفتاحاً نحو مستقبله، فأراد أن يستعملها الإنسان بحكمة.

في كتابه الأول (آلة الزمن)، كتب "ويلز" عن رحالة يسافر عبر الزمن إلى عام 8271، وفي كتابه (الرجل الخفي)، كتب عن رجل

يملك القدرة على إخفاء نفسه يصل الى قرية إنجليزية، وفي كتابه (حرب الأكوان)، تهبط مخلوقات من كوكب المريخ إلى الأرض، وبالذات إلى إنجلترا، لتسيطر على البشر هناك، فتختفي مظاهر الحياة المألوفة، ويتجه مجتمع القرن العشرين فجأة نحو الدمار، ولا يعود ذلك الشعب الفخور بنفسه سوى حيوانات.

في جميع قصصه التي تشبه الأحلام، يواجه أناس حقيقيون فجأة أوضاعا غريبةً وغير مألوفة، ففي عالم سريع التغير مثل عالمنا، لا تبدو مثل هذه الأحداث مستحيلة الحدوث، بل لا بد واقعه، فلماذا لا نكون مستعدين لها كما يرى؟!.

ويرسم "ويلز" صورة مرعبة لما يمكن أن يصبح عليه رجل العلم إذا لم يستطع السيطرة على القوة التي طورها، وهو يتساءل في قرارة نفسه: هل نحن متأكدون أن الإنسان سيتطور بما يتناسب وزيادة قوته؟ تظهر لنا قصصه أن أناس عام 8271، والرجل الخفي، وأولئك الرجال القادمون من المريخ، ليسوا أفضل أو أكثر سعادة من الإنسان العادي الذي نعرفه، يمكنهم القيام بأشياء لا نستطيع القيام بها، لكنهم فقدوا إنسانيتهم، فقد ضحوا بالعواطف مثل: الحب والشفقة

واللطف، ليتحولوا إلى قوة مرعبة تشبه الآلة.

كتب "ويلز" في مواضيع عديدة، ويعد أفضل ما كتبه يدور حول شباب بسطاء سذج، كما كان هو نفسه، ففي قصتيه (كيبس) و(تاريخ السيد يولي)، استعمل تجربته المؤلمة في النمو في عالم كان صعبـًا بالنسبة للفقراء، وتجعلنا شخصياته نضحك ونبكي معـًا، وكما كانت كتبه الأولى، فقد أصابت هذه الكتب نجاحـًا، وما زالت تستحق القراءة اليوم.

في قصته (آن فيرونيكا)، كتب حول حب رجل وامرأة بإخلاص يزعج الكثيرين، وهذه أيضا تتضمن هدفـًا جاداً، فـ"ويلز" يريد أن يغير عادات الزواج في بلاده، ليعطي الزوجين حرية أكبر.

أصاب "ويلز" نجاحـًا سريعـًا واستمرت شهرته طيلة فترة حياته، ولكن نجاحه ككاتب لم يكن كافيـًا بالنسبة له، فقد أراد أن يغير شكل العالم، إذ كتب عدة كتب ومقالات جادة حول العالم كما كان، وكما يمكن أن يصبح، فلفت الانتباه.

لقد كان بمثابة رسول يكف عن تحذير الأمة من (شكل الأشياء القادمة)، وهو اسم كتاب آخر له، لقد تنبأ بعدة أشياء منها على سبيل

المثال: الحروب، وارتياد الفضاء.

وفي حياته الطويلة -عاش نحو ثمانين عامـًا، وكتب ما يزيد عن سبعين كتابـًا-، شاهد الكثير من نبوءاته تتحقق، أما خوفه من أن لا يتمكن الإنسان من استعمال القوة التي أعطاه إياها العلم بشكل صحيح، فإن الكثير من الناس يشاطرونه هذه التخوفات الآن.

كان "ويلز" رجلاً صغير الحجم، إلا أنه أصبح شخصية عظيمة في حياتنا، فقد تنبأ بعصر الفضاء قبل أن يتمكن الإنسان من الطيران.

كتب عام 1898 وهو في إنجلترا، كلمات تبدو وكأنها حديثة جداً، كآخر هبوط على سطح القمر، لقد قال: أن كوكبنا يمكن القول أنه لن يستمر آمنـًا ليعيش الإنسان فيه.

وصور لنا وقتـًا عصيبـًا يمكن أن يأتي إذا لم نستمع إلى تحذيراته، وقت يكون فيه العالم صعبـًا وصامتا في ظل ذلك اليوم الكبير.

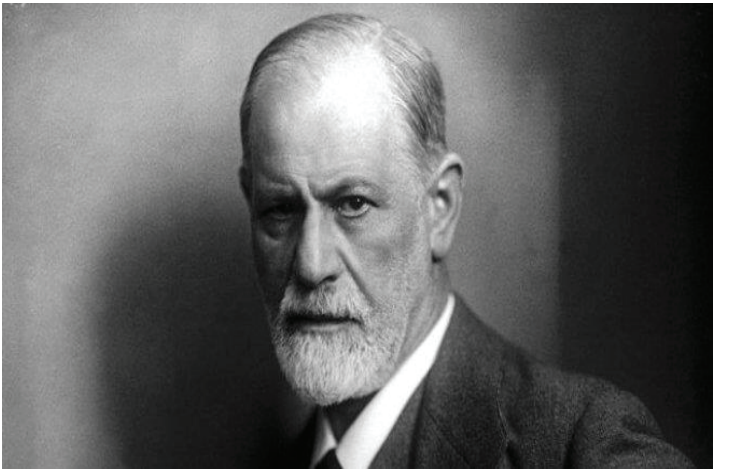

سيجموند فرويد

هل تنتابك الأحلام في الليل؟ كل الناس يحلمون، وعندما يستيقظون في الصباح يتساءلون، يا له من حلم غريب، ما الذي جعلني أحلم؟ في بعض الأحيان تكون الأحلام مرعبة ومخيفة، تهاجمنا فيها مخلوقات عجيبة، أو قد نطير في الهواء، أو نتدحرج عن قمم الجبال، وفي أحيان أخرى قد تسبب لنا الأحلام المشكلات، فتشوش كل شيء، عندها نحس أننا ضائعون، وأن العالم مقلوب، ولا شيء له معنى، ومن الغريب، أن الأحلام قد تتحقق في بعض الأحيان.

في الأحلام نتصرف بغرابة، فنفعل أشياء لا يمكن أن نفعلها في الصحو، ونقول أشياء، ونفكر بها ما كنا لنفكر بها أو نقولها ونحن مستيقظون، فما هو سر غرابة الأحلام، ومن أين تأتي؟.

حاول الناس الإجابة على هذا السؤال منذ الأزل، لكن لم يستطع أي شخص أن يقدم إجابة مقنعة أكثر من إجابة شخص يدعى "سيجموند فرويد"، يقول "فرويد" أن عالم الأحلام بالنسبة للإنسان عالم غريب، وغير مألوف، لأن الأحلام تأتي من جزء من عقل الإنسان لا أحد يدركه، أو يستطيع السيطرة عليه، وذلك هو العقل الباطن (اللاوعي).

ولد "سيجموند فرويد" (Sigmund Freud) في مدينة فيينا بالنمسا، وتوفي في لندن بعد بداية الحرب العالمية الثانية.

لقد كان مكتشفاً عظيماً في تاريخنا، لكن العوالم التي اكتشفها كانت في داخل الإنسان نفسه، فالعقل اللاواعي يشبه جباً عميقاً مليئاً بالذكريات والمشاعر، وهذه الذكريات والمشاعر مخزونة هناك منذ لحظة مولدنا -وربما قبل مولدنا- ونسيها عقلنا الواعي، ولا نشك في أنها هناك تضطرنا حادثة ما غير سعيدة، أو غير عادية على التذكر، أو الحلم، ففجأة نشاهد وجهاً نسيناه منذ أمد بعيد، أو نشعر بالغيرة والإحباط، كما شعرنا عندما كنا أطفال.

يعتبر هذا الاكتشاف لـ"فرويد" مهماً جداً إذا أردنا أن نفهم سبب تصرف الناس بتلك الطريقة، فقوى اللاوعي التي في داخلنا تعادل قوى الوعي التي نعرفها، لماذا نختار صديقاً بدل آخر؟ لماذا تسبب لنا قصة ما البكاء أو الضحك، بينما لا تؤثر فينا قصة أخرى نهائياً؟ ربما نعرف لماذا، وإذا كنا لا نعرف، فلربما يقبع السبب عميقاً في عقلنا الباطن.

عندما كان "فرويد" صغيراً، أراد أن يكون جندياً يحقق الشرف

لبلاده، إذ كانت ألمانيا والنمسا في حالة حرب، واعتاد أبوه أن يأخذه إلى محطة القطار ليشاهد القطار وهو عائد من ساحة المعركة مليء بالجرحى الذين فقدوا عيناً أو ساعداً أو ساقاً، وكان الكثير منهم يعانون من ألم شديد.

راقب "سيجموند" الصغير الجرحى وهم ينقلون من القطارات إلى عربات الإسعاف التي تحملهم إلى المستشفى، وشعر بالأسى تجاههم، حتى أنه قال لمعلمه ذات مرة في المدرسة: دعونا نحن الطلاب نقوم بعمل الضمادات للجرحى كما تفعل أخواتنا في مدرسة البنات.

كان "فرويد" يهتم بمعاناة الآخرين، فليس من المستغرب أن يصبح طبيباً عندما يكبر، ومثل كل الأطباء، فقد تعلم كل شيء عن الجسم البشري، إلا أنه أصبح فضولياً فيما يخص العقل البشري.

ذهب إلى باريس كي يتعلم من طبيب فرنسي مشهور اسمه "جاركوت" (Charcot)، اختص بدراسة أمراض العقل والأعصاب، في ذلك الوقت لم يكن هناك أحد يعرف الكثير عن العقل، فإذا ما جن شخص أو (خرج من عقله)، فلم يكن يعرف ما يمكن عمله لراحته

وراحة عائلته، إذ لم يكن الناس يعرفون ماذا حصل له، هل سكنته روح شريرة، أو شيطان؟ أم أن الله يعاقبه لأعماله السيئة، وغالباً ما كان مثل هؤلاء الناس يُحجر عليهم، أو يمنعون من مخالطة الأسوياء، وكأنهم قد ارتكبوا جريمة نكراء، مع العلم أن هذا الاعتقاد ما زال سائداً حتى يومنا هذا في بعض المناطق.

يفضل الأطباء أن يفحصوا الأجزاء التي يمكنهم رؤيتها ومعاينتها من الجسم، إذا ما فتحت رأس رجل فإن بإمكانك رؤية عقله، لكن لا يمكنك رؤية أفكاره، أو آرائه، أو أحلامه.

كان عدد قليل جداً من الأطباء أيام "فرويد" يهتمون بهذه المواضيع، فأراد "فرويد" أن يعرف ما الذي يجعلنا نفكر ونشعر بهذه الطريقة، وكيف تعمل أدمغتنا، وقد تعلم الكثير حول هذا الموضوع من الدكتور "جاركوت" (CHARCOT).

عاد إلى فيينا عام 1886 وبدأ العمل طبيباً للأعصاب، تزوج بعدها، وبدأ باستقبال المزيد من المرضى في منزله كي يستطيع إعالة زوجته.

كان معظم مرضاه من النساء اللواتي كن مرهقات وقلقات،

مريضات في عقولهن وليست أجسامهن، فلم ينفعهن الدواء، ومع أن "فرويد" كان يرثي لحالهن، إلا أنه لم يكن هناك الكثير ليفعله لهن.

في أحد الأيام جاءه صديق لزيارته اسمه الدكتور "جوزف بروبر"، وأخبره عن فتاة مريضة كان يرعاها، ويبدو أن الفتاة كانت تتحسن عندما يسمح لها بالحديث عن نفسها، فجعلها الدكتور "بروبر" تتحدث قدر ما يحلو لها، فأخبرته بكل ما يدور في خلدها، سواء أكان يبدو مهمـاً أم لا، وفي كل مرة تتحدث فيها إليه، كانت تتذكر أكثر فأكثر عن حياتها كطفلة صغيرة.

ابتهج "فرويد" عندما سمع ذلك، إذ اعتقد أن هذه هي الطريقة المناسبة لمساعدة مرضاه، وبدأ يعتني بهم بنفس الطريقة، فكان يسأل عن الأحداث المبكرة لطفولتهم، ويحثهم على الحديث، عن خبراتهم وعلاقاتهم، دون أن يتحدث هو نفسه إلا ما قل.

وعندما يستمع لمرضاه، فإنهم غالبـاً ما يستعيدون أحداثا معينة من حياتهم الماضية، فتنتابهم نوبات من الغضب والخوف، الكره والحب، فيتصرفون وكأن "فرويد" هو أبوهم، أو أمهم، أو عشيقهم، ولم يكن هو يبدي أية محاولة لإيقافهم، فكان يدعهم يتحدثون كما يحلو لهم،

ويحافظ على هدوئه، ويتقبل كل ما يقولونه له بخيره وشره، وقد كان الحديث إليهم بمثل هذه الطريقة يجعلهم في بعض الأحيان يشفون من آلامهم.

ذات مرة جاءته فتاة في مقتبل العمر، لا تستطيع الشرب رغم أنها عطشى، فهي قد ترفع كأس الماء إلى شفتيها ثم تدفعه بعيداً، كان هناك ما يمنعها من الشرب، وقد اكتشف "فرويد" سبب ذلك، ففي أحد الأيام، وبينما هو يستمع لها، تذكرت الفتاة أنها شاهدت كلباً يشرب من كأس ممرضتها، ولم تقم بإخبار الممرضة بذلك لأنها لا تحبها، ونسيت الأمر، لكن فجأة عادت هذه الذكريات الطفولية إلى ذاكرتها، وعندما شرحت كل ذلك للدكتور "فرويد" حول الممرضة والكلب وكأس الماء، استطاعت الفتاة أن تعود إلى الشرب مرة أخرى.

سمى "فرويد" المعالجة بهذه الطريقة بـ(العلاج بالحديث)، وسميت فيما بعد بطريقة التحليل النفسي (Psychoanalysis)، فعندما يتحدث المرضى بحرية عن الأشياء التي تقلقهم، فإنهم غالباً ما يشعرون بتحسن، فقد تعلموا أن يسيطروا على مخاوفهم، وربما لا يكون هذا مفاجئاً، فكلنا نعلم كم سيساعدنا الأمر إذا بحنا بمشاكلنا

إلى أحد أصدقائنا.

كانت الأشياء التي يخبره بها المرضى في بعض الأحيان تسبب له صدمة، فقد اكتشف أن مشاعر الأطفال الصغار لا تختلف كثيرا عن مشاعر آبائهم، الطفل الصغير قد يحب أمه كثيراً لدرجة أنه قد يرغب في قتل أبيه، وفي نفس الوقت، فإنه يحب أباه، وفي أعماق نفسه يخجل من هذه الرغبة، وبما أنه من الصعب العيش بمثل هذه المشاعر المتناقضة، فإنها تنسى وتختفي في العقل الباطن، وتعود إلى الظهور فقط في الأحلام المزعجة.

كان "فرويد" يخبر الأطباء الآخرين بكل ما يتوصل إليه، لكن معظمهم كانوا قلقين من هذه الاكتشافات، حتى أن الدكتور "بروبر" خذله وأوقف تجاربه.

لقد كان من الصعب التصديق أن الناس يمكن أن يصابوا بالعمى، أو يفقدوا القدرة على الحديث بسبب ما كان قد حصل لهم وهم أطفال، كان العقل البشري يتحول إلى مكان مظلم مرعب.

هوجم "فرويد" من كل الجهات للأشياء التي قالها وكتبها، وأصبح له العديد من الأعداء، لكنه كسب العديد من الأصدقاء أيضا،

فقد آمن الكثير من الناس أنه قد وجد على الأقل طريقة لفك أسرار العقل البشري، ومساعدة الناس البؤساء الذين يرثى لحالهم، لقد وجد الإجابة على الكثير من أسئلة الحياة الكبرى.

أصبح "فرويد" مشهوراً في العالم كله، وعلم الآخرين كيف يستعملون طريقة (العلاج بالحديث)، ونتيجة لذلك، لا نستطيع اليوم قياس مدى تأثيره على الفنون والآداب والعلوم، فالكتاب والمسرحيون والرسامون، إضافة إلى العاملين في المستشفيات والسجون والمدرسين، كلهم تعلموا شيئًا من هذا الرجل العظيم، الذي كشف لنا عن الطريق إلى (العقل الباطن).

ليست جميع آراء "فرويد" مقبولة اليوم، لكن الآخرين تبعوا خطواته، وساعدونا على فهم أنفسنا بشكل أفضل، وبفضله، وفضل من تبعه، أصبح هناك أمل اليوم أكثر مما كان في السابق، للأشخاص الذين كان يطلق عليهم ذات مرة (مجانين).

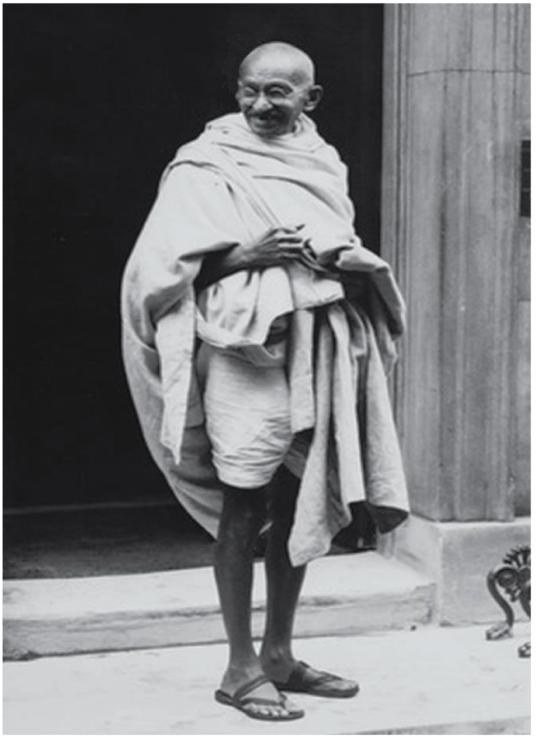

المهاتما غاندي

يملك معظم الناس -على الأغلب-، صوراً في أذهانهم عن رجل بسيط، معروف للجميع، وهو "غاندي"، وربما توقعتم أي نوع من الرجال كان، هل كان رجلاً مقدساً في هذا العالم الخاطئ؟ أو هل كان هندياً مخلصاً يشتعل حباً لبلاده؟ هل كان حالماً يكره التطور والتقدم ويريد العودة إلى حياة القرية البسيطة؟ أم هل كان محامياً طموحاً؟ ربما لا توافقون على معظم ما يقال عنه هنا، لأن في شخصيته جوانب لا يستطيع أحد أن يحيط بها جميعها.

كان الشاعر "طاغور" هو أول من أطلق اسم "مهاتما"، أو الروح العظيمة على "ماهنداس كارا مجاند غاندي"، فتلقف المعجبون به هذا الاسم ليطلقوه عليه، إلا أنه هو نفسه لم يكن يحبه، فلم يكن يرغب في أن تطلق عليه ألقاب أو غيرها، لذا، فمن الصعب وصف هذا الرجل وهو من أعظم الرجال في عصرنا بأي وصف آخر.

ورغم أنه ليس هناك أي رجل كان له دور في نضال الهند السياسي، للحصول على الاستقلال أكبر من دوره، إلا أن كلمة (سياسي) لا تناسبه، فهو لم يطمع في السلطة، أو علو المرتبة، فقد رفض أن يتولى أي منصب وزاري، أو أي مركز في حزب سياسي، ولم يهتم بالثروة،

أو السمعة، أو حتى الراحة.

لقد كان قائداً دينيـًا كبيراً، ورغم ذلك، فليس هناك دين يملك الحقيقة كلها بالنسبة له، فقد وجد الحقيقة في كل الأديان، وكان الناس من عقائد مختلفة يذهبون ليجلسوا بين يديه، ويتعلموا منه، فوصلت تعاليمه إلى قلوب البشر من مختلف الملل.

وعلى الرغم من أنه كان هندوسيـًا ملتزمـًا، إلا أنه لم يحاول تغيير دين الآخرين، لكنه حاول أن يرشدهم، فهو يعتقد أن حياة الروح وحياة الفعل هما شيء واحد لا يمكن فصلهما، وأن كل عمل له مضامينه الروحية والاقتصادية والاجتماعية، والروح ليست منفصلة، ولا يمكن أن تكون كذلك، وليس هناك دين بلا سياسة، ولا سياسة بلا دين، فالإيمان والعمل شيء واحد.

كان "غاندي" حالمـًا، قضى حياته يجاهد كي يقنع العالم من حوله بأحلامه، حلم بعالم ليس فيه غني ولا فقير، أو سيد وعبد، عالم لا يخجل فيه إنسان من مولده، أو وضعه الاجتماعي، وحلم بعالم يتمتع فيه الرجال والنساء باحترام وتقدير متساوٍ، ويحتفظون بحاجات الجسد تحت سيطرة ثابتة، بحيث يحترم كل شخص المعتقدات

الدينية لجاره.

حلم بعالم يعيش فيه الناس ببساطة، يملكون القليل، ويعيشون في قرى وليست مدنـًا، وفوق ذلك، أراد "غاندي" أن يعيش الناس بسلام، سعداء فخورين بأنهم يعملون لأجل لقمة الخبز.

أرادهم أن يعملوا بأيديهم وليس بالآلات، وليقدم مثالاً على ذلك، فقد كان يملك هو نفسه مغزلاً صغيراً يستعمله كل يوم، وبهذه ارتأى "غاندي" قبل كثير من الناس، أنه لم يعد بمقدور الأرض تقديم الثروة والراحة لكل سكانها، إلا إذا طلبوا القليل لحاجاتهم، واستعدوا للعيش ببساطة، وبما يكفي لسد حاجاتهم فقط، وبهذه الطريقة يمكن أن يحل السلام بين البشر، ونجد هذه الأيام تحذيرات من علماء الأمم الغنية، خوفـًا من الوقوع في الشيء نفسه.

كان "غاندي" يلقي الخطب في بعض الأحيان، إلا أنه كان يؤمن بقوة المثال الحي وأثره، فعاش هو وأتباعه حياة بسيطة منضبطة، يقومون بالأعمال الصعبة الشاقة (الوضيعة)، يأكلون القليل، وينامون أقل، ويخصصون وقتـًا للصلاة والتأمل.

وغالبـًا ما كان "غاندي" ينظف المراحيض بنفسه، لأن هذا أمر

ضروري ومفيد، فالقرويون الهنود لا يمكن أن يكونوا أصحاء إذا لم تكن عاداتهم نظيفة، وكان يقوم بهذا ليكون قدوة للآخرين، فليس هناك عمل نظيف، وآخر غير نظيف، فكل الأعمال الضرورية ذات قيمة.

ولد "موهنداس غاندي" عام 1869، في ولاية صغيرة غرب الهند، لوالد صاحب وظيفة عالية، وكان هذا الجزء من الهند يحكمه في الماضي أناس من ديانات مختلفة، وعلى الرغم من أن عائلته كانت هندوسية، إلا أن عاداتهم الدينية كانت من ديانات مختلفة، فقد كانت تدين بعض الشيء للمسلمين، والمعتقدات الأخرى، فأفراد أسرته لا يأكلون اللحم، أو يشربون الخمر، ولا يدخنون، ويقضون بعض الوقت بلا طعام (الصوم)، وفيما بعد، غالباً ما كان "غاندي" يقول: إن التفكير العميق والصلاة، يستحيلان دون السيطرة على حاجات الجسد الملحة.

تعلم "غاندي" منذ طفولته الاحترام العميق لكل أشكال الحياة، والتي تسمى (أهيماس)، وكلمة (أهيماس) تعني ألا تسبب الأذى لأي كائن حي.

استمرت ممارسة الـ(أهيماس) جزءاً ثابتـًا من تعاليم "غاندي"، بل حتى في النضال الأخير لتحرر الهند من الهيمنة البريطانية، رفض أن يسمح لأتباعه باستعمال القوة، وفي بعض الأحيان، كانت الجماهير التي يقودها تخرج عن السيطرة، فتحدث الكثير من الخراب والعنف، لكنهم لم يفعلوا أبدا مثل ذلك بإذن أو معرفة "غاندي".

لم يكن "موهنداس" الصغير يختلف عن الصبية الآخرين، إذ كان غلامـًا هادئـًا، وليس متفوقـًا في المدرسة، يكره الرياضة وكل الألعاب الجماعية، تزوج في سن الثالثة عشرة عندما كان لا يزال في المدرسة، وهذا هو السن الذي تزوج به بقية إخوته، وأقام له والداه مأدبة كبيرة، أما زوجته "كاستوباري"، فقد كانت بنفس سنه، إلا أنها لم تتلق إلا القليل من التعليم، ومع أن "غاندي" كان زوجـًا مخلصـًا (وفيـًا)، إلا أنه نظر بعد فترة إلى هذا الزواج نظرة عار، وحاول جل جهده أن يبعد شعبه عن عادة زواج الأطفال، لكن هذه العادة ما زالت موجودة إلى اليوم.

عندما كان "غاندي" صغيراً، أقام صداقات مع الأطفال الذين كانوا يأتون إلى المنزل لتنظيف الحمامات، فقد شعر بالرثاء تجاههم،

والذين يقومون بهذه الأعمال (المزرية) في الهند، ينتمون إلى طبقة من الهندوس تسمى (المنبوذون)، والذين لم يكن يسمح حتى لخيالهم أن يلامس هندوسيـًا من الطبقة العليا، ويعتقد أن حياتهم الصعبة، هي عقوبة على أعمال سيئة في فترة مبكرة من حياتهم، لم يهتم بهم أو يرثي لحالهم إلا عدد قليل من الناس، ولم يتمكنوا من تحسين مستويات معيشتهم، فليس أمامهم سوى القبول بطريقة المعيشة الذليلة تلك.

فيما بعد، أعاد "غاندي" تسمية هؤلاء الناس بـ(أبناء الله)، وعمل جاهداً لمساعدتهم، وكالعادة فعل ذلك بطريقته الخاصة، فقد أخذ طفلاً من أبناء المنبوذين وضمه إلى عائلته، وقام علانية بالأعمال التي كانت توكل إليهم، وعن ذلك يقول "غاندي": لا أحب أن أولد من جديد، لكن إذا قدر لي أن أولد من جديد، فإنني أحب أن أكون من المنبوذين، حتى أتمكن من مشاركتهم آلامهم.

لم يتحقق كل ما سبق ذكره مرة واحدة، ففي صغره اختير "موهنداس" من جهة عائلته ليتبع خطى والده في خدمة الولاية، وكي يحقق لهم هذه الأمنية، كان لا بد له من الحصول على تعليم جيد، لكنه فشل تمامـًا في أول كلية أرسل إليها، لذلك أرسلوه إلى إنجلترا

ليدرس الحقوق، ولم يكن قد بلغ التاسعة عشرة، ومع ذلك، فقد أصبح أبا.

عندما وصل إلى لندن، بدأ الهندي الصغير يتصرف قدر استطاعته مثل أغنياء الإنجليز، فكان يرتدي أحدث موديلات الألبسة، ويتعلم الرقص والموسيقى، وينفق الكثير من المال، لكنه حافظ على العهد الذي قطعه لأمه قبل أن يغادر بلاده، بألا يتذوق اللحم، لكن هذه المحاولة لكسب إعجاب الأجانب لم تدم طويلاً على أي حال، فما أن نفذت نقوده حتى بدأ "غاندي" ينظر نظرة جدية إلى الحياة الإنجليزية، وتأثر تأثراً كبيراً بحياة وتعاليم المسيحيين، واعتبر مسيحيـًا، وقرأ في هذه الفترة بالإنجليزية -ولأول مرة في حياته- كتاب (بهاجافاد جيتا) والذي بدا له أنه يحتوي على الحقيقة أكثر من أي كتاب آخر، ودرس كذلك حياة الكثير من العظماء، ورجال الدين أمثال: النبي محمد، وبوذا، كما بدأ في هذه الفترة يكون آراءه الخاصة، ويستمد القوة والمعرفة من كل الأديان، إلا أنه وجد أنه من الطبيعي الوصول إلى الله من خلال إيمانه بالهندوسية.

عاد المحامي الشاب إلى موطنه بعد قضاء ثلاث سنوات في

إنجلترا، وخلال الإحدى وعشرين سنة التالية، عمل في جنوب أفريقيا، والتي كانت في ذلك الوقت -مثل الهند- تحت الحكم البريطاني.

عاش في البداية حياة محامٍ ناجح، إلا أن الحياة بدأت تصعب أمام الهنود في جنوب أفريقيا، فلم يكن بمقدورهم السفر بحرية في البلاد، ولا انتخاب ممثليهم وقادتهم، حاول "غاندي" مساعدة الهنود من خلال تبني قضاياهم في المحاكم، إذ أن إيمانه بالنظام القضائي البريطاني كان كبيراً.

مرت السنوات دون أي تحسن على وضع شعبه، فبدأ "غاندي" بتجربة طرق جديدة لتحصيل حقوقهم، ففي عام 1904، أسس جريدته الأولى (الرأي الهندي)، لتعليم وتوحيد الشعب، وفي عام 1907، قاد أول حركة كبيرة للخلاص من قانون غير عادل، وشجع شعبه على عدم الخضوع للقانون، لكن دون إيذاء أحد، إذ كان عليهم مقاومة قوة السلاح بقوة الحقيقة، دون كراهية أو عنف، وعليهم أن يكونوا مستعدين للموت لكن دون أن يقتلوا أحداً، ومع ذلك، فقد اعتقل الكثير منهم وأودعوا السجون.

استمر الهنود بالتعبير عن مشاعرهم بهذه الطريقة بأعداد تتزايد كل

يوم، وسرعان ما استطاعوا إثبات قوة الحركات السلمية ضد القوانين غير العادلة، وسجن "غاندي" نفسه عدة مرات في هذه الفترة.

في عام 1914، عاد "غاندي" إلى الهند، تسبقه أنباء ما فعل في جنوب أفريقيا، لقد كان "غاندي" هو ذلك القائد الذي تحتاجه الهند لتوحيد شعبها، فهو لم يكن ينتمي فقط إلى حزب أو جماعة دينية، فكل الهنود إخوانه، ومع أنه كان سجينا في فترة الحرب، إلا أنه دعم الحكومة، فحاز بذلك على احترام الحكام الإنجليز.

عندما أصبح "غاندي" في الخامسة والأربعين، كانت قد مضت عليه عدة سنوات تاركًا كل ما يتعلق بحياته الأسرية، وحياته الخاصة في صراعه لمساعدة شعبه، وأصبح زعيمًا للمجلس الوطني الهندي، والذي كان يهدف إلى الحصول على الاستقلال التام من بريطانيا، ولتحقيق ذلك، تجول في البلاد -غالبًا- على الأقدام، وارتدى أبسط الثياب المصنوعة من القطن، وكان يصنعها بيديه، ينزل في أفقر الأحياء من المدن والقرى، وسرعان ما أصبح له الملايين من الأتباع ضمن الشعب، وأصبحوا ينظرون له وكأنه رجل مقدس فقير مثلهم.

لم تستقل البلاد، فبدأ "غاندي" يحث الناس على عصيان أوامر

الحكومة كما فعلوا في جنوب أفريقيا، فكان الموظفون البريطانيون يردون بقوة، وغالباً ما كان "غاندي" يودع السجن.

لكن في عام 1919، قاد "غاندي" الشعب في عصيان أسماه (عصيان الحب) ضد الحكومة، فتوقف الملايين من الناس عن العمل، وكما هي العادة، فقد حث "غاندي" أتباعه على تجنب العنف، تفجرت أعمال شغب في بعض المدن نتيجة للغضب المتزايد، وأخيراً صدرت الأوامر إلى الجنود البريطانيين بإطلاق النار على المتظاهرين العزل في مدينة (أميرستار) فقتل 379 شخصاً، وجرح الكثيرون، مما سبب الحزن لـ"غاندي"، فقد حذر الناس كي يستعدوا لمواجهة الموت، وكان مما قاله: قبل الفوز بأي حرب، لا بد من موت آلاف الجنود، عدوكم هو أخوكم الغبي، ساعدوه عندما يتأذى، ولا تطيعوه إذا حاول إيذاءكم، ففي النهاية ليس هناك عدو يبلغ من القوة بحيث يستطيع مقاومة نار الحب، ستربحون معركتكم عندما تتمكنوا من القضاء على الحقد في قلوب أعدائكم.

استقلت الهند أخيراً في عام 1947 بعد نضال طويل، وكان في وقت واحد ما يزيد على ثلاثة وعشرين ألف شخص في السجن، وعندما

جاء يوم الاستقلال، شعر "غاندي" بقليل من السعادة، والكثير من الحزن، إذ ما كاد الهنود الهندوس والمسلمون يقهرون عدوهم المشترك، حتى انقلبوا ضد بعضهم البعض، وحدث قتال عنيف مروع يثير الفزع في النفوس، وفي النهاية، لم يعد هناك بلد مستقل واحد إنما بلدان متشاحنان هما: الهند والباكستان، وضاع حب الأخوة الذي حلم به "غاندي".

كان غاندي يصلي دومًا لإنهاء الحقد والغيرة بين الهندوس والمسلمين، فقرر ألا يأكل شيئًا حتى يتم التوصل إلى اتفاق ما، محتملاً الحزن والأسى والألم، لكن حياته وأعماله وصلت فجأة إلى النهاية، ففي أحد الأيام الذي تأججت به المشاعر الدينية، انبرى أحد أتباع طائفته الدينية من الهندوس من بين الجموع الفقيرة، وأطلق عليه النار في معدته، فسقط على ركبتيه وكأنه يصلي، وتوفي على الفور.

كان قلبه يمتلئ بالأسى لأجل بلاده عندما مات، لكن، وكما سنرى، فإن حلم الروح العظيمة "مهاتما غاندي" بتحقيق مجتمع مسالم عادل، قد عاش في قلوب الرجال الذين جاءوا بعده.

ماريا مونتسوري

... إحدى عجائب الطبيعة، هي بالفعل قدرة حديثي الولادة، والذين ليست لديهم أية خبرة في الحياة، على تلمس طريقهم، وحماية أنفسهم من العالم الخارجي، تقودهم غريزة ما في أوقات محددة...

بهذه الكلمات عبرت "ماريا مونتسوري" عن الشعور بالتعجب الذي يصيبها، وتحس به بصحبة الأطفال، فكل آرائها حول التعليم نمت من خلال احترامها للغريزة القوية التي تقود الأطفال، ومن خلال تلك الفترات من حياة الطفل، التي يكون فيها مستعداً للتعلم.

وقد أصبحنا اليوم معتادين على الفكرة التي تقول: إن الأطفال الصغار يجب أن يملكوا الحرية، فأفضل المعلمين هم الذين يوفرون غرفة الصف المريحة، ويستمعون دائماً إلى قصص الأطفال، ويعطونهم الوقت الكافي للعب، ويتركون لهم حرية اختيار ما يريدون، هل يريدون رسم صورة مثلاً؟ أم اللعب بالرمل والماء، أو التظاهر بأنهم أصحاب محلات تجارية، أو أطباء وممرضات؟ إنهم يعلمون، أن الأطفال يتعلمون بشكل أفضل، عندما يكونون مستمتعين بما يفعلونه، ويتمتعون بدروسهم.

لكن كل هذا لم يكن موجوداً عندما كانت "ماريا مونتسوري" (Montessori Mara) صغيرة، فعندما زارت لأول مرة المدارس في

موطنها إيطاليا، وبلدان أوروبية أخرى، وجدت أن الأطفال يجلسون على مقاعد داكنة اللون، ويرتدون السواد، ويكتبون بحبر أسود، فبدا لها الأمر وكأنه (جنازة)، فقالت في نفسها: يجب أن يعيش الطفل في عالم من الجمال، ويجب أن تكون لديه حرية في الحركة، والتعبير عن آرائه الخاصة.

ونجد أن أطفال اليوم، مدينون بالكثير مما تتحقق من مدارس ممتعة إلى أعمال "ماريا مونتسوري"، والآخرين الذين شعروا بمثل شعورها.

ولدت "ماريا" عام 1870 في شمال إيطاليا، حيث كان والدها جنديـًا، وكلا والديها متعلمان جيداً، وعندما لاحظا أن طفلتهما راغبة بتعلم شيء مثل العلوم، والذي لم تكن مدارس الإناث تعلمه، أرسلاها إلى مدرسة للذكور في روما، وبعدها انتقلت لدراسة الطب والأحياء في جامعة روما، مخالفة بذلك رغبة والدها.

جعل الطلاب من الذكور هذا الأمر صعبـًا بالنسبة لهذه الفتاة الجميلة، ذات العيون الداكنة، فقد كانوا يعتقدون أنه من غير اللائق لامرأة أن تدرس الطب، وعندما كانوا يقومون بتشريح الجثث لدراستها، كان على "ماريا" أن تقوم بذلك لوحدها، وغالبـًا ما يكون

هذا الأمر في وقت متأخر من الليل، حيث يكون الرجال قد عادوا إلى بيوتهم، لكن، وعلى الرغم من كل هذا، فقد أصبحت طبيبة ومدرسة للطب برتبة (بروفسور) في نفس الجامعة.

ذات يوم، بينما كانت لا تزال طالبة، ذهبت للتنزه في حديقة عامة، فأوقفتها امرأة فقيرة تجر طفلة في الثانية من عمرها معها، وطلبت منها نقوداً، كانت حالة الطفلة مثيرة للشفقة، فهي متسخة وشبه عارية، ملابسها رثة، لكن "ماريا" لم تستطع أن تبعد ناظريها عنها، لأنها بدت وكأنها ليست ضمن هذا العالم القاسي من حولها، فقد كانت تنظر إلى ورقة ملونة باهتمام شديد، ساعدت رؤية هذه الطفلة الطالبة الصغيرة على فهم الطبيعة الخاصة لعقل الطفل، فبدا لها الأمر مختلفاً عن عقل البالغين، فهو أكثر روعة، وينتظر الفرصة المناسبة ليتحرر ويتعلم ويتطور بطريقته الخاصة من أجل (حرية التعلم).

بدأت الطبيبة الصغيرة العمل مع الأطفال المتخلفين عقلياً، والذين يبدون وكأنهم غير قادرين على التعلم لأسباب عديدة، وجدت أن مثل هؤلاء الأطفال يوضعون في مستشفيات قديمة مع المجانين من الكبار، ويعاملون بأسوأ مما يعامل به المرضى من الكبار، وكأنهم حيوانات صغيرة، فليس لديهم ما يلعبون به، ويقضون معظم يومهم

يزحفون على الأرض، ويلهـون بفتات الطعام الساقط تحت الموائد.

اهتمت الدكتورة "مونتسوري" بطريقة الأطفال في التقاط قطع الخبز، إذ لم يكن يبدو عليهم الجوع، كانت واثقة أنهم يبحثون عن شيء يلمسونه ويمسكونه بأيديهم، فهم يريدون أن يلمسوا الأشياء ويختبرونها، لقد شاهدت ذلك، فإذا أراد الأطفال التعلم، فيجب أن يملكوا أشياء يستطيعون لمسها، واختبار حجمها، وشكلها، ووزنها وألوانها، يجب أن يشعروا مما صنعت، ويجب أن يضعوا الأشياء مع بعضها البعض.

عندما بدأت بتعليم هؤلاء الأطفال، قدمت لهم أشياء تساعدهم، أشياء يستطيعون الإمساك بها بأيديهم، ويتعرفون عليها، علمتهم أشياء بسيطة مثل صب الماء، والإمساك بالقلم، وعلمتهم أن ينظفوا أنوفهم بالمناديل، فزادت ثقتهم بأنفسهم، وبقدرتهم على القيام بمثل هذه الأشياء.

ثم علمتهم القراءة والكتابة، ولم يكن الأطفال ينظرون إلى الحروف فقط، بل لمسوها أيضا، فهي حروف مصنوعة من الخشب، أو الورق المقوى.

شجعتهم على اكتشاف الحروف والأرقام، وتكوين الجمل، فسرعان ما بدأوا يقرأون، ويجرون العمليات الحسابية وحدهم، وكانت المعلمة موجودة هناك لمساعدتهم في حل أية صعوبة تواجههم.

تعلم بعض هؤلاء (المتخلفين)، إلى درجة تؤهلهم لاجتياز امتحان الدولة الذي يتقدم له طلاب المدارس الآخرون، تم تشجيع الدكتورة "مونتسوري" على ما فعلته، وبدأت تتساءل إذا ما كانت طريقتها في التعليم ستنجح مع جميع الأطفال؟

في عام 1907، أعطيت الفرصة لتطبيق أفكارها على أطفال تتراوح أعمارهم بين الثالثة والسادسة، وذوي قدرات متقاربة، ويعيشون في حي فقير جداً من أحياء روما انتقلت عائلاتهم للعيش في بنايات حديثة أفضل من بيوتهم السابقة، لكن هؤلاء الناس كانوا يعرفون القليل عن الصحة والنظافة، كما أن الأطفال ليس لديهم مكان يذهبون إليه، أو أي شيء يفعلونه أثناء وجود ذويهم في العمل، فكانوا مزعجين ومشاغبين، وهيئاتهم قذرة، وكانوا يكسرون الأشياء دون أي سبب، لذلك، قامت الحكومة بإيجاد أماكن لهم، وطلبت من الدكتورة

"مونتسوري" أن تفعل ما باستطاعتها لأجلهم .

كان هناك ستون طفلاً في أول بيت للأطفال، وكانت غرف هذا البيت ملونة وزاهية، وتطل على حديقة، حيث يستطيع الأطفال الزراعة والعناية بمزروعاتهم، وكانت أحجام الطاولات والمقاعد تتناسب وحجم الأطفال الصغار، وكانت هناك صور ينظرون إليها، وزهور يتنشقون عبيرها.

اتخذ الأطفال قراراتهم الخاصة فيما يريدون عمله، وعملوا بطريقتهم الخاصة، فأصبحوا مشغولين هادئين وسعداء.

بحلول عام 1913، انتشرت أخبار هذا الذي يجري في هذه المدرسة، بمنطقة (سان لورنزو) في كل أنحاء العالم، فذهب المعلمون من دول مختلفة إلى روما ليتعلموا، وافتتح عدد من مدارس "مونتسوري" في لندن، وبدئ بتدريس مساق خاص لتدريب المعلمين.

سافرت "ماريا مونتسوري" كثيراً في أوروبا وأمريكا والشرق البعيد، وترك ابنها "ماريو" أعماله وتفرغ لمساعدتها، كانت تعتقد أن التعليم الحقيقي الذي يناسب الاحتياجات الحقيقية للطفل، سوف

يخرج كباراً عقلاء وسعداء، وبالتالي ينتج عالماً مسالماً.

ألفت كتباً تحمل عناوين مختلفة مثل (سر الطفولة)، و(التعليم لعالم جديد)، وقد ترجمت بعض هذه الكتب الى لغات مختلفة.

عملت مدارس "مونتسوري" مع أطفال من جنسيات وطبقات وأديان مختلفة، وكانت النتائج مشجعة مع الأطفال من أعمار مختلفة، سواء أكانوا سريعي أم بطيئي التعلم.

قدم المعلمون مواد جذابة ملفتة لنظر الأطفال، وعلموهم كيفية استعمالها، ثم بدا أن الأطفال يختارون لأنفسهم أعمالا حسب ميولهم الداخلية، لم يكن الطلاب يجلسون بلا حراك، بل كانوا يتحركون بحرية، وما يتعلمونه يعتمد عليهم، لكن الدكتورة "مونتسوري"، كانت تعتقد أن لكل طفل فترة معينة يكون فيها مستعداً لتعلم أشياء معينة، ففي وقت من الأوقات قد تكون الأرقام، وفي وقت آخر قد تكون اللغة، المهم في الأمر أن يكون الطفل منقاداً لاحتياجاته الخاصة.

لقد كانت "ماريا مونتسوري" واحدة من أعظم المعلمين في العالم، كما أن نظرتها الأصلية إلى التعليم قد غيرت كل نظرتنا إلى

الطفولة، ففي أوروبا -على الأقل-، لطالما عومل الأطفال على أنهم بالغون، لكنهم ناقصون، ضعفاء، وبلا فائدة، وكلما تصرفوا مثل البالغين، كلما أسعد ذلك البالغين، وغالبًا ما كانوا يعاقبون لتصرفهم مثل الأطفال، فكل ما هو طبيعي لطفل صغير يعتبر خطيئة.

وجدت الدكتورة "مونتسوري" الطفولة شيئًا خاصًا ومشرقًا، كأي وقت يكون فيه العقل والحواس متقدة، واليوم يشاركها الكثير من الناس هذا الرأي.

غادرت إيطاليا بعد استلام "موسوليني" للسلطة، وأنهت أعمالها هناك، إلا أن نشاطها لم ينته حتى نهاية حياتها، فقد قضت السنوات الأخيرة من عمرها متنقلة، تعلم مجموعات من المعلمين في كل أنحاء العالم، وتوفيت في هولندا عن عمر يناهز الثانية والثمانين عامًا.

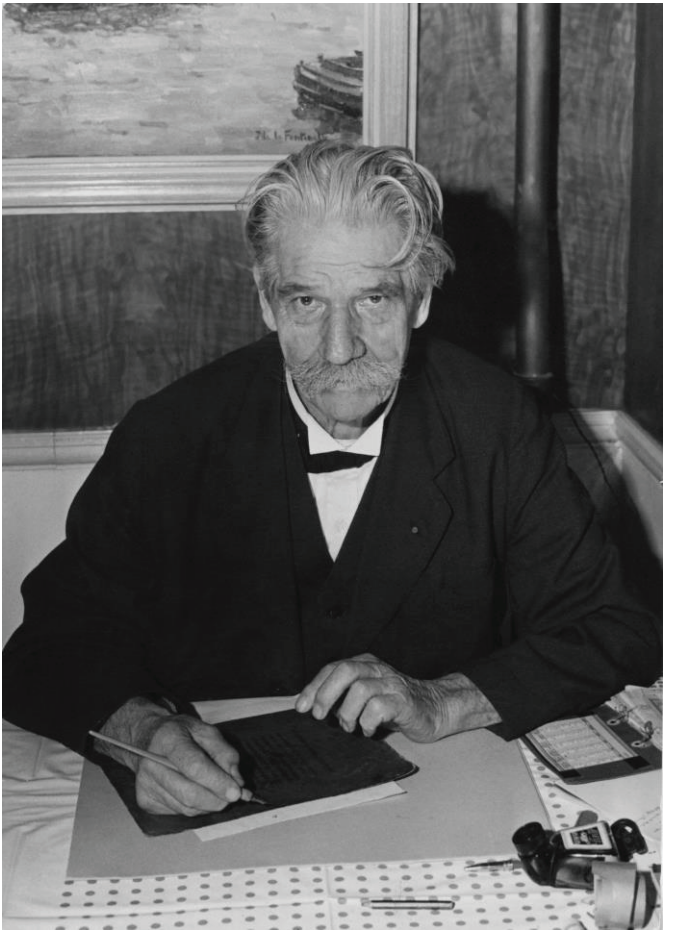

ألبرت شويتزر

ذات صباح من عام 1896، وفي بلد جبلي جميل في مدينة (الساك)، أفاق شاب من نومه مبكراً، وظل مستلقياً في فراشه يفكر في مستقبله، كان في الواحدة والعشرين من العمر، ويعلم جيداً أنه يملك الصحة والقوة، ويملك ذكاءً خارقاً، فهل سيصبح قسيساً مثل أبيه؟ أم هل سيصبح معلماً حكيماً، أو كاتباً معروفا، أو هل سيصبح عازفاً مشهوراً على الأورغ ومصمما له؟ كل هذه الأشياء كانت خيارات ممكنة لهذا الطالب الجامعي، والذي كان يدعي "ألبرت شويتزر".

فقد كانت هناك أشياء كثيرة تستهويه، مثل: الموسيقى والدين وتاريخ الفكر الإنساني، وكان كذلك يحب صنع الأشياء بيديه، وكان عازفاً ماهراً على آلة الأورغ، لقد كان واثقاً أن بإمكانه النجاح في كل ما يقدم عليه.

ومع أنه هو نفسه، لكنه مع كل ذلك، رغب في تنفيذ إرادة الله، قد حالفه الحظ ليكون سعيداً، إلا أنه كان يعلم أن هنالك الملايين حياتهم تعيسة، شقية في هذا العالم، فتمنى مخلصاً لو كان بإمكانه تحسين مستوى حياتهم.

لقد درس "ألبرت" حياة السيد المسيح بعناية كبيرة، ويعرف تماماً

حكاية الرجل الغني الذي يلبس ملابس ثمينةً، ويأكل طعامـًا جيداً كل يوم، بينما يجلس الرجل الفقير "لازاروس" مريضـًا وجائعـًا على أعتاب بيته، أفلا يتوجب على الأمم الغنية في العالم، دعوة الفقراء إلى ولائمهم؟ إن المضيف الجيد لا يدعو أصدقاءه فقط، بل إنه يعتني بالمحتاجين من الفقراء، والمرضى، والعميان، ويشاركهم بما يملك.

سأل الشاب نفسه، إذا كان باستطاعته القيام بمثل هذه التضحية؛ وهل بإمكانه التخلي عن الموسيقى والعلم، وكل الأشياء المبهجة في الحياة؟ وعلى ما يبدو، فقد كانت الإجابة ليس بعد، فقد قرر أن يعطي لنفسه تسع سنوات، أي حتى يبلغ الثلاثين لتحقيق كل الأشياء التي طالما أراد القيام بها، وبعد ذلك، سوف يسخر نفسه لخدمة الآخرين.

لم يعرف أحد بقرار "ألبرت شويتزر" في ذلك اليوم إلا هو نفسه، فدرس بتركيز، وألف الكتب، وتعلم كيف يصنع آلات الأورغ التي تزود كنائس أوروبا بالموسيقى وتدرب على العزف عليها، حتى أصبح موسيقيـًا محترفا، وأصبح الكثيرون يأتون إليه لسماع عزفه، وأصبح كاهنـًا للكنيسة، ورئيسـًا للكلية، ورجلاً ذا سمعة جيدة.

بلغ الثلاثين من العمر، لكنه لم ينس قراره، خلال هذه السنوات

عمل بجد كبير، ولم يذق طعم النوم إلا قليلاً، وفي أغلب الأحيان، لم يكن ينام أبدا، وفي أحيان أخرى، كان يتعرض للإغراءات بنسيان الفقراء في العالم، إلا أن ضميره لم يكن يدعه يفعل ذلك.

لقد كانت هناك صورة عالقة في ذهنه، ففي مدينة (كولمار) التي زارها عندما كان طفلاً، نصب حجري يمثل جنديًا فرنسيًا، ويستلقي عند قدميه عبد أسود، فكان أن استقرت صورة العبد بوجهه القوي في قلب الغلام، واعتاد أن يخرج عن طريقه كي ينظر إلى ذلك النصب، لقد أوحى له بالمعاناة غير الضرورية لأفريقيا السوداء، وفيما بعد قال: إن ذلك النصب الحجري هو أول من أوحى له بفكرة العمل في أفريقيا.

كان بإمكانه بالطبع، الذهاب إلى أفريقيا في ذلك الوقت مباشرة كمعلم أو قسيس، إلا أن تلك الفترة -وبشكل أكبر من الآن- كانت تعج بالأمراض والأوبئة، مع وجود عدد قليل جداً من الأطباء، لذلك، فقد قرر "ألبرت شويتزر" أن يصبح طبيبًا، وعندما كان يبلغ أصدقاءه بذلك، كان يقول لهم: بالنسبة لي، يعني الدين أن تكون إنسانا بكل معنى الكلمة، أن معنى حياتي ليس في المعرفة والفن، لكن بكل بساطة

في كوني إنسانا، والقيام بأشياء من وحي روح المسيح.

طلب منه الكثيرون أن يترك ما عزم عليه حتى لا يتوه في مجاهل أفريقيا، وأوصوه أن عليه تدريب آخرين للخدمة، فلم يتوقع أحد أن يذهب هو بنفسه، فالأمر يبدو تضحية عظيمة لرجل يمتلك مثل مواهبه، خصوصاً موهبته في الموسيقى، فهل يريد الناس في أفريقيا حفلات موسيقية على الأورغ؟

كان "سويتزر" قد حسم أمره، فهو رجل لا يقبل النصيحة بسهولة، ففي عام 1905، وعندما كان في الثلاثين من عمره، عاد إلى الجامعة كطالب في كلية الطب، واستمر بنفس الوقت يعلم ويعظ، وكان يقيم حفلات العزف على الأورغ، يجمع المال اللازم لمسيرته في كلية الطب، واستمر في الدراسة والكتابة.

كان هذا كثيراً بالنسبة لرجل واحد، فكان مرهقاً بصورة مفزعة أثناء تأديته لامتحاناته النهائية بعد ست سنوات، لكنه أصبح طبيباً في النهاية.

في عام 1913، أبحر هو وزوجته "هيلين" إلى أفريقيا، ومعهم كل ما يحتاجونه لإنشاء مستشفى صغير، كانت زوجته "هيلين" التي

تزوجها قبل سنة من السفر، تشاركه رغبته في العمل في أفريقيا، ففي الوقت الذي كان هو فيه يتدرب ليصبح طبيباً، تدربت هي لتصبح ممرضة، وخططا معاً لفتح مستشفى في محطة جميعة باريس التبشيرية، في منطقة (لامبارنس) على ضفاف نهر (أوجوا)، و(لامبارنس) هذه كانت في الغابون، وكانت تحتلها فرنسا في ذلك الوقت.

لم تدعم الدكتور "شويتزر" في عمله هذا أية بعثة، بل جمع التبرعات اللازمة لذلك بنفسه، من خلال كتبه ومحاضراته وحفلاته الموسيقية، وهذه الأمور كان من الممكن أن تجعل منه رجلاً غنياً لو أنه بقي في أوروبا، ومع ذلك، فقد كان دائماً يفتقر إلى المال اللازم للقيام بأعماله.

قامت جمعية باريس التبشيرية بمنعه من الوعظ في منطقة (لامبارنس)، مع أن آراءه كانت محترمة في كل أنحاء العالم، لكن البعثة التبشيرية لم تكن متأكدة أن تعاليم الطبيب كانت تعاليم مسيحية، لم يثنه منعه من الوعظ عن عزمه، فقد جاء إلى أفريقيا ليعمل لا ليتحدث، وأراد أن يظهر القيمة العالية والكبيرة التي أولاها للحياة

بعمله وطريقته الخاصة في الحياة.

كانت بعثته لمساعدة المرضى وإنقاذ الحياة، وذات يوم، وخلال رحلته إلى أعالي نهر (أوجوا)، خطرت بباله الكلمات التالية (انحناءة للحياة)، وهذه الكلمات تعبر أكثر من غيرها عن احترامه لقيمة وأهمية كل الكائنات الحية: الحيوانات والطيور والأشجار والورود والإنسان.

لم يكن الأمر ناجماً عن ضيق أفق لدى بعض البعثات التبشيرية كي ترتاب بأفكاره، فقد كان لهذه الأفكار ارتباط وثيق بأديان الشرق التي درسها، واعتقد أننا جميعاً نتذكر مبادئ "غاندي" الـ(أهيماس)، والتي تقضي باحترام كل أشكال الحياة.

لقد كان "شويتزر" يشترك مع كثير من أهل الشرق بانحناءته للكائنات الحية، لذلك، فإن الدكتور "شويتزر" وزوجته، لم يبنيا مستشفاهما غير المكتمل على ضفاف نهر (أوجوا) لتغيير أديان الناس، أو التدخل في عاداتهم، لقد أراد العناية بصحتهم وسعادتهم.

قدم المرضى من أماكن قريبة وبعيدة لتلقي المساعدة من الطبيب الجديد في (لامبارنس)، فقد كان ذا مظهر جذاب، والابتسامة لا تفارق

شفتيه، وكان الأفارقة عادة ينامون على الأرض، لذلك فقد كانوا تواقين لتجربة الأسرة الخشبية في المستشفى، ففي بعض الأحيان، كان الطبيب يجد المريض نائماً على الأرض، بينما يستلقي أقرباؤه الذين جاءوا للعناية به على الأسرة، ومع قرب نهاية العام الأول، كان هناك مستشفيان صغيران قد بنيا وخدما حوالي ألفي مريض.

لكن الأمور لم تجر على ما يرام، ففي عام 1914، بدأت الحرب بين فرنسا وألمانيا (الحرب العالمية)، وتأثرت أفريقيا بآثارها، كانت عائلة الدكتور "شويتزر" قد قدمت من منطقة (الساك)، وهي منطقة تتبع في بعض الأحيان فرنسا، وأحياناً أخرى تتبع ألمانيا، وفي تلك الفترة كانت تتبع ألمانيا، لذلك فقد اعتبرت عائلة الدكتور "شويتزر" ألمانية، بينما كانت الغابون فرنسية، فأصبح الطبيب وزوجته سجناء حرب في مستشفاهم، ومع قرب انتهاء الحرب، تم نقلهم إلى معسكر للاعتقال في فرنسا، تاركين (لامبارنس) دون طبيب.

مضت سبع سنوات قبل أن يتمكن الدكتور "شويتزر" من العودة إلى أفريقيا، وخلال وجوده في أوروبا، جمع أموالا لدفع ديون المستشفى من خلال تأليف الكتب وغيرها، وعندما تمكن أخيرا من

العودة إلى (لامبارنس) عام 1924، وجد أن المستشفى قد أصابه الخراب أثناء غيابه، فبدأ على الفور بإصلاحه، وكان يقوم هو بنفسه بمعظم العمل اللازم، فكان يعمل طبيباً في الصباح، وبعد الظهر بناءً.

ثم أمحلت الدنيا، فانتشرت المجاعة بين الناس، وتبعها انتشار للمرض، ومع أن مزيداً من الأطباء والممرضات قدموا إلى المستشفى، إلا أنه لم يعد يتسع، فكان من الواضح أنه لا بد من الانتقال.

كان ملك الشمس الأفريقي قد اتخذ له قصراً يبعد عدة أميال أعلى النهر، وهذا هو المكان الذي اختاره الدكتور ليبني فيه مستشفى واسعا جديداً، وبمساحة تتسع لعدد كبير من المرضى.

وكانت هناك أيضا حظائر للحيوانات المتعددة التي جمعها الدكتور، فالأفارقة يعلمون تماماً أن الدكتور سيمنح مكافآت مقابل الحيوانات بدل تركها لتموت، فقد كان يحب كل الكائنات الحية، بما فيها الحيوانات المتوحشة، والأفاعي، وحتى الحشرات الضارة، فهو لا يقتلها إذا كان باستطاعته أن يساعدها.

وأحب كذلك النباتات والأشجار، فأحاطها بعنايته، حتى أن

المزارع والحدائق المحيطة بالمستشفى كانت تلقى عناية فائقة، وبما أن المحاصيل الزراعية مهمة لصحة البشر، إلا أن الورود كانت مخلوقات حية أيضا، فلا يقطعها كي يزين بها المنزل.

وأينما يتواجد الدكتور كانت تتواجد الكلاب والقطط، والكثير من المخلوقات الغريبة أيضا، وذات مرة أنقذ الطبيب حياة ثلاثة من صغار البجع، وبنى لها بيتـًا، وأطعمها بيديه، بل وعلمها كيف تلتقط طعامها، فبقيت إحدى هذه البجعات في (لامبارنس) بعد أن غادرت الأخريات، وكانت تحرس الدرج المؤدي إلى غرفة الطبيب ليلاً، وتصدر صوتـًا مزعجـًا إذا ما حاول غريب الدخول، وفيما بعد أصبح السيد (بجع) شخصية معروفة في المستشفى وفي القرية.

عندما كان المستشفى يحتاج أموالا، أو مساعدين بين الحين والآخر، كان الدكتور "شويتزر" يعود إلى أوروبا، فيحيي الحفلات الموسيقية، ويعطي المحاضرات في مواضيع مختلفة، وعلى الرغم من عمله الشاق طبيبـًا وبناءً، إلا أنه بقي يكتب الكتب في أوقات متأخرة من الليل على ضوء مصباح زيت، لقد كان مفكراً كبيراً.

في عام 1939، أصبح من المؤكد أن حربـًا عالمية ثانية سوف تقع،

فقطع "شويتزر" زيارة كان يقوم بها لزوجته وحفيدته في أوروبا، وعاد ليقضي سنوات الحرب في منطقة (لامبارنس) في ظل ظروف صعبة، وبعيد انتهاء الحرب، كان غالبًا ما يتحدث عن الأسباب الموجبة للسلام.

ومنذ ذلك الحين، وحتى وفاته عام 1965، قدمت له العديد من الجوائز والأوسمة من دول عديدة، كانت أعظمها جائزة نوبل للسلام التي ظفر بها عام 1952، وقد ساعدته نقود الجائزة على بناء مستشفى للمرضى المصابين بالجذام.

توفي وهو ما يزال يعمل في (لامبارنس)، عن عمر يناهز التسعين عامًا، وقبره ما زال هناك.

ترى... هل كان هذا الرجل العظيم آسفًا لتركه بلده، ومحاربة المرض والتخلف في أفريقيا؟ هل كان الأمر يستحق التضحية لتقديم مثال على المحبة والأخوة؟ بالتأكيد، لقد اعتقد "ألبرت شويتزر" أن الأمر يستحق ذلك، وكتب مرة يقول: السعادة الحقيقية، هي أن تعمل في هذا العالم، ولا ترجو من عملك أو من الناس شيئًا، ولا حتى أن يشار إليك بالبنان.

وكتب مرة أخرى يقول: أنا لست إلا شخصاً يقوم بما هو أمر طبيعي، والأمر الطبيعي هو تقديم المعروف.

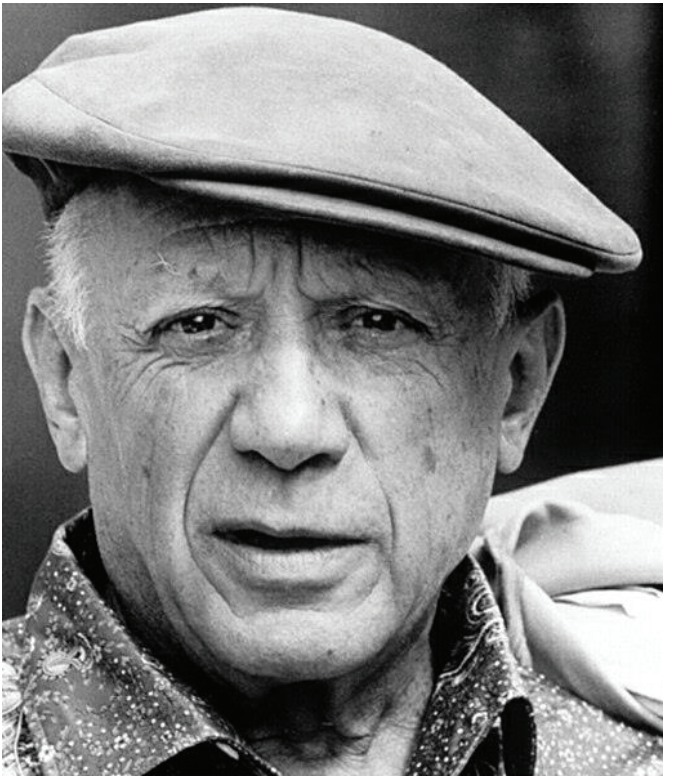

بابلو بيكاسو رويز

ولد "بابلو بيكاسو رويز" عام1881، ولكن لماذا نسميه أصغر رسام في العالم؟ عندما توفي عام 1973 كان في الحادية والتسعين من العمر، لكنه كان ما يزال يأخذ ألوانه وفرشاته ليبدأ برسم لوحة جديدة، وكأنه يرى الأشياء لأول مرة، وهذا هو السبب الذي دعانا إلى تسميته بأصغر رسام.

يحاول الصغار تجربة أشياء جديدة، وطرقًا جديدة، ولا يترددون في محاولة أمر ما تلو الآخر، فهم يتوقون إلى التجربة، ويرحبون بالأفكار الجديدة، وهم لا يهدأون، تملأهم الحياة ولا يقنعون، ويبحثون عن الكمال.

أما كبار السن، فغالبًا ما يخشون التغيير، فهم يعرفون أفضل ما يمكنهم عمله، وهم يفضلون أن يعيدوا نجاحاتهم بدل أن يخاطروا بالفشل، وجدوا مستواهم في الحياة، ولا يريدون أن يغادروه، إذن، فنحن نعلم تمامًا ماذا نتوقع منهم، عندما تجاوز التسعين من العمر كان هذا الرسام الإسباني العظيم يعيش حياته مثل شاب صغير، فكان شغوفًا بالأفكار الجديدة، وبالطرق الجديدة لاستعمال أدواته الفنية، فلم يعرف أحد ماذا يمكن أن يبدر منه، ولا يمكن لأحد أن يكون

متأكداً أية لوحة سوف يرسم، فإذا ما رسم لك لوحة فلربما تبدو مثلك تماماً، وقد تبدو كلها خطوط ومربعات ودوائر، وذات ألوان غريبة، وربما لا تبدو على شكل إنسان إطلاقا.

في بعض الأحيان تنقسم رسومات "بيكاسو" إلى قسمين رئيسيين، ففي بعض الأحيان تكون العيون والأنف في أماكن غريبة، وفي أحيان أخرى تبدو وكأنها غير منتظمة الشكل، أو مكسورة، والألوان هائجة وغريبة.

وعنوان اللوحة يقول لنا أنه شخص، لكنه قد يبدو مثل آلة، في تلك الأوقات كان "بيكاسو" يرسم ما يراه بعقله لا ما يراه بعينيه، وهو يرسم جانب الوجه مثلما يرسم مقدمته، ويرسم الجسد العاري وعليه ملابسه في آن معاً، وربما يرسمه مسطحاً بلا عمق.

وفي بعض الأحيان يبدو أنه يرسم مثل رسومات الأطفال، فقط من أجل متعته الذاتية، فهو لم يقلد الآخرين. «إذا كانت المواضيع التي أريد التعبير عنها تتطلب طرقاً مختلفة من التعبير، فلا أتردد في استعمالها» حسبما يقول.

وبكلمات أخرى، فإنه يرسم لوحاته بأية طريقة تبدو مناسبة له،

دون الالتفات إلى آراء الآخرين، يكتشف معظم الرسامين أسلوبا في الرسم يناسبهم ويتمسكون به، خصوصاً إذا ما أعجب الناس بلوحاتهم، ومع تقدم الرسام بالعمر قد تتغير لوحاته بعض الشيء، إلا أن "بيكاسو" كان مثل رجل لم يجد أسلوبه في الرسم بعد، فكان ما يزال يكافح لإيجاد تعبير مناسب (كامل) لروحه القلقة.

إن أول ما يلاحظه الناظر إليه، هو تلك النظرة الواسعة لعينيه المفتوحة على اتساعها، وقد ذكرت "جيرترود ستين"، -وهي كاتبة أمريكية مشهورة عرفته في شبابه-، تلك النظرة الجائعة، والتي نستطيع أن نراها في صورة اليوم، وكان "بيكاسو" قد رسم لها لوحة عام 1906، ولها حكاية ممتعة حسبما تقوله "جيرترود ستين"، فقد زارت مرسمه ثمانين أو تسعين مرة أثناء رسمه لصورة لها، وأثناء الرسم كان "بيكاسو" يجاذبها أطراف الحديث حول كل شيء في العالم يستهويهما، وذات يوم شطب "بيكاسو" رأس اللوحة، والذي كان قد عمل وقتاً طويلاً لإنجازه قائلاً: عندما أنظر إليك لا يعود باستطاعتي رؤيتك.

غاب "بيكاسو" في إجازة الصيف، وعندما عاد ذهب مباشرة إلى

اللوحة غير المكتملة في زاوية مرسمه، وأكمل رسم الرأس من الذاكرة، لقد كان باستطاعته رؤية وجه المرأة بشكل واضح في ذهنه، أكثر مما شاهده وهي تجلس أمامه في مرسمه.

عندما شكا له الناس من أن رسمه للآنسة "ستين" لا يشبهها، أجاب "بيكاسو" قائلاً: من المؤسف حقـًا أنه يتوجب عليها أن ترتب أمورها، بحيث تشبه هي اللوحة.

لكن بعد مضي ثلاثين عامـًا، قالت "جيرترود ستين": أن رسم "بيكاسو" لها، كان هو الصورة الوحيدة التي أظهرتها كما هي على حقيقتها.

ولد "بيكاسو" في مدينة (ملغا) بإسبانيا، وهي مدينة وادعة هادئة، كان والده رسامـًا ومدرسـًا للفنون، وهو الذي أعطاه أول درس في الرسم.

لم يفلح "بابلو" الصغير في المدرسة، فقد كان كسولاً ولا يلتفت إلى ما يقوله معلموه، ورفض تقبل الانتقاد من أحد، فقد كان واثقـًا من نفسه منذ البداية، وسرعان ما تبين أن الغلام فنان، ويستحق الحصول على أفضل تدريب على الرسم يمكنه الحصول عليه، ذلك أن

رسوماته الأولية لم تكن لتبدو مثل رسومات طفل صغير.

لم يكن هناك من شك بأنه سينجح في حياته، وإذا كان هناك من ولد ليكون رساماً، فإنه بلا شك "بيكاسو".

فاز بجائزة عن أول لوحة مهمة له بعنوان (العلم والإحسان)، عندما كان في الخامسة عشرة، درس الفن في عدة مدن إسبانية، لكن لم يكن هناك من يعلمه كل ما يريد معرفته، وعندما كان في التاسعة عشرة زار باريس، في ذلك الوقت كانت باريس مركزاً عالمياً للفنانين، فمعظم الرسامين سيذهبون إليها عاجلاً أم آجلاً للتعلم والدراسة، ومشاهدة اللوحات، وعقد الصداقات مع الرسامين الآخرين، فكل ما هو جديد ومثير في عالم الرسم، كان يبدو أنه يحدث هناك.

وعندما بلغ الثالثة والعشرين، عاد إلى باريس وعاش في فرنسا بقية حياته، كان عندها قد أصبح رساماً جيداً، فرسم مشاهد من حياة البلدة، ورسم الناس في الشوارع، والمطاعم، وفي سباقات الخيول، ومصارعة الثيران، والسيرك، وكانت لوحاته مرسومة بألوان زاهية، جذابة للناظرين.

لكن الحياة لم تكن سهلة لرسام مغمور، بدأ الصراع يظهر في

اختيار جديد للمواضيع، فلعدة سنوات رسم أناسا من أفقر الأحياء، رجالاً ونساءً ضعفاء، جائعين ومتعبين، ومرضى وعميانـًا، فأصبحت ألوانه قاتمة، ورسمت معظم هذه اللوحات باللون الأزرق وظلاله، وأظهرت بوضوح ما شاهده الفنان وأحس به، فجاءت لوحاته في (الحقبة الزرقاء) مليئة بالشفقة واليأس.

لم ينتظر "بيكاسو" طويلاً كي ينجح، فما أن بدأ ببيع لوحاته، وتقديم نفسه كرسام، حتى بدأت لوحاته تحظى بالإعجاب، وفي نفس الوقت، بدأ يرسم بحرية أكبر، واستقلال تام، وبدأ برؤية الناس والأماكن بأشكال بسيطة، وسرعان ما حاول أن يجعل لوحاته قريبة من الحياة.

بدت النتائج في البداية غريبة وغير حقيقية، فاللوحات كانت عصية على الفهم، إذ أنه رسم الرؤوس البشرية، ومناظر من الطبيعة أو مواضيع أخرى معروفة، كلها بنفس الطريقة، كما لو أن شكلها هو الشيء الوحيد المهم فيها -وهذا الأسلوب في الرسم-، والذي انتقل الى العديد من الرسامين فيما بعد، عرف بـ(التكعيبية) -من شكل المكعب-.

هوجم "بيكاسو" لهذا الأسلوب الجديد والمخيف في بعض الأحيان، فهو يرسم لوحات مثل بعض أسوأ أحلامنا، في هذا القرن جعلت الكاميرا من غير الضروري رسم الأشياء كما هي بالضبط، لأن الكاميرا تستطيع أن تعكس الحياة بدقة أكبر، لكن ما تعطيه لنا اللوحات العظيمة، هو نظرة إلى الحياة من خلال عيني رجل واحد، ولكل إنسان نظرة تختلف عن غيره.

بعض لوحات "بيكاسو" غنية، وهادئة الألوان وجميلة، وبعضها الآخر بشع غليظ وغريب، به خطوط سوداء حادة، لكن مثل هذه الرسومات تجعلنا نتخيل الأشياء لأنفسنا، فهي تستطيع أن تجعل نظرتنا إلى العالم أكثر حدة، لأنها تجبرنا على أن نقول لأنفسنا إن ما يراه هو الذي يجعله يرسم بهذه الطريقة؟ ونبدأ بالبحث بما تحت سطح الشيء الذي نراه.

رسم "بيكاسو" آلاف اللوحات، وبالعديد من الأساليب المختلفة، في بعض الأحيان يرسم بالنظرة الطبيعية للأشياء، وفي بعض الأحيان يبدو أنه يجزئها إلى أجزاء، ويرميها في وجوهنا، لقد طالب بحقه في أن يرينا ما يعرفه العقل، وما تراه العين، وقد بقي هو نفسه

فضولياً تجاه العالم كما كان عندما كان صغيراً.

لعبت الطيور والأماكن والأشياء الطبيعية الأخرى دوراً في رسومات "بيكاسو"، لكن في كثير من الأحيان، عندما نفكر به، نفكر بالطريقة التي رسم بها الوجه البشري، والذي هو جميل وغريب.

وقد كتبت "جيرترود ستين" تقول: الرأس والوجه البشري والجسد، هي كل ما هو موجود بالنسبة لـ"بيكاسو"، أما أرواح البشر فلا تهمه، لأن حقيقة الحياة في الرأس والوجه والجسد.

وهذه دعوة منا لكل من يحب الاطلاع على لوحات "بيكاسو" ليفعل، وليقارنه بغيره من الرسامين.

شارلي شابلن

في عام 1900، كان هناك غلام صغير داكن الشعر يدعى "تشارلز شابلن"، غالبًا ما يشاهد وهو ينتظر خارج المدخل الخلفي لمسرح لندن، كان يبدو نحيلا وجائعًا، إلا أن عينيه الزرقاوين مليئتان بالتصميم، فهو يأمل أن يعمل في العروض المسرحية، إذ أن باستطاعته الغناء والرقص.

كان أبواه من فناني القاعات الموسيقية، أي أنه ولد في الحياة المسرحية، وعلى الرغم من أن فترة صباه كانت مؤلمة وصعبة، إلا أنه كان يعرف كيف يُضحك الآخرين.

كانت ملابسه فضفاضة رثة، وبما أنه كان من المتعذر إيجاد العمل دائمًا، فقد تنقل لمدة مع فرقة للغناء والرقص تسمى (صبية لانكشاير الثمانية)، ولعب معهم دور الكلب.

كان الصبية أعضاء هذه الفرقة، ينامون سويًا كل ليلة في نزل مختلف، ومدينة مختلفة، يفتقدون أمهاتهم، وأثناء نومهم تتناهى إلى أسماعهم أصوات مشاجرات السكارى في الشوارع.

توفي والده من كثرة الشرب، ولم تكن أمه قادرة على رعاية "تشارلز" وأخته التي تكبره قليلاً، والتي كانت مريضة بعقلها،

ويتوجب إرسالها إلى المستشفى، وحتى عندما كانت تعيش معهم، كان يبدو أنها تعيش في عالم آخر، فجعل مرضها الغلام حزينـًا جداً.

عندما لم يكن "تشارلز" يتمكن من الحصول على عمل، كان يتسكع في شوارع المدينة، يبحث عن الطعام والمأوى أينما توفرا، وفي بعض الأحيان، كان يرسل إلى بيت للأطفال المشردين، حيث كان يعاني هناك من البرد والبؤس، والتوبيخ والعقاب لأتفه الأسباب.

بعد ثلاثين عامـًا، كان "تشارلز شابلن" هذا يتقبل ضيافة الملك، غنيـًا وناجحـًا ومشهوراً، ومضيفوه هم مشاهير العالم من أمم مختلفة، والكل يريدون مقابلته، وتظهره الصور بصحبة رجال من أمثال "تشرتشل"، و"أينشتاين"، و"غاندي"، وأصبح شخصية ملكية في عالم السينما الجديد المشرق "شارلي شابلن" ملك الكوميديا.

كتب مرة يقول: **يجب أن تثق بنفسك، هذا هو السر، حتى عندما كنت في بيت الأطفال، أو أجوب الشوارع بحثـًا عما يسد الرمق من طعام، حتى في تلك الأوقات، فكرت بنفسي كأعظم ممثل في العالم.**

فلولا الثقة بالنفس كما يقول، لكان قد سقط في مهاوي اليأس والقنوط، إن أي زائر منتظم لدور السينما، لا بد وأن يكون قد شاهد

بعض أفلام "شارلي شابلن"، فقد كان الناس في كل مكان يجلسون لمشاهدته، حتى تدمع عيونهم من كثرة الضحك.

فمنذ ظهوره لأول وهلة، يعرفون ماذا يتوقع من هذا الرجل الصغير الوديع، ذي الشارب الأسود المتيبس، والعيون المفتوحة على وسعها، والقبعة السوداء المستديرة، والحذاء الواسع، إذ أنه ينتقل من حادث مضحك إلى آخر، فهو يسير بصعوبة عبر الثلوج، ويتزحلق على الجليد، ويسقط من النوافذ، وينزلق عن الجسور، يقاتل رجلاً بضعف حجمه، ويقع بحب نساء بالكاد يلاحظن وجوده.

شخصيات قوية وغنية، وأكثر شجاعة منه تهينه وتأخذه بعيداً، لكنه بطريقة ما سوف يقاتل ليعود من جديد، ويقف على قدميه مرة أخرى، ويتغلب على قلبه المجروح، ويعود كما كان.

إن شخصية (الصعلوك الصغير)، والتي مثلها "شابلن" في مئات الأفلام، هي شخصية يتمكن الجميع من فهمها، الرجل الفقير الذي يقع بكل أنواع الأخطاء الغبية، فهو دائماً في المشاكل، ومع ذلك يحلم بالعظمة، يضحكنا بمحاولاته المجنونة لتفادي قدره القاسي، فيجد طرقاً مدهشة للخروج من كل مأزق، ولا تستطيع الحياة قهره.

إن هذا الصعلوك الصغير، لا يختلف كثيراً عن ذلك الغلام المشرد، الذي يشعر بالبرد، وبالكاد يرتدي ما يستر عورته، ويرفض اليأس مثل الطفل، فهو ضعيف، خائف أحمق، لكنه لا يستسلم أبدا.

يستطيع كل الناس، حتى الذين لا يعرفون الإنجليزية فهم أفلام "شابلن"، لأن معظمها من النوع الصامت، وليس ما يضحكنا هو ما يقوله، إذ أن الكوميديا التي يمثلها لا تعتمد على الكلمات أو اللغة، بل تعتمد على قليل من الحركة، التي تعني نفس الشيء للناس في كل أنحاء العالم.

فالتمثيل الصامت لأوضاع إنسانية معروفة، يلعب دوراً هامًا في رقصات ومسرحيات الكثير من الشعوب، فهي نوع من اللغة العالمية.

يرفع "شابلن" حاجبيه الأسودين، أو يراقص عينيه، ويصلح من معطفه، أو يلوح بعصاه في الهواء، يداري نفسه خلف سيدة سمينة، أو يختبئ تحت طاولة ليهرب من أعدائه، يحاول أن يكون شجاعًا فيسقط أرضا مغمى عليه، ينفض الغبار عن أسماله، ليعطي عن نفسه انطباعًا فخوراً في بعض المناسبات الاجتماعية، يتظاهر بما ليس فيه، ولا يمكن له أن يكون في يوم من الأيام غنيًا وناجحًا ورجلاً مهمًا،

ولأن هذا مستحيل، ولا أمل فيه، فيجعلنا نضحك، وهذا هو سر نجاح "شابلن" الكبير.

اكتشف شخصية (الصعلوك الصغير) بالصدفة، فمثل كل الشباب، سافر هو وأخوه إلى أمريكا ضمن فرقة صغيرة من الممثلين، ومثلوا في مدن مختلفة، وذات يوم دعي "تشارلز" لينضم إلى فرقة صغيرة تمثل أفلاما كوميدية، فقبل العرض، وسرعان ما أصبح معروفاً.

وبعد فترة وجيزة، كان قد مثل العديد من الأفلام القصيرة لهذه الفرقة، وفي الفيلم الثاني الذي مثله، ارتدى تلك الملابس التي جعلت له الشهرة، قبعة سوداء، ومعطفا ضيقا، وسراويل واسعة، وحذاءً ضخما، وشاربا وعصا.

لقد قصد بكل بساطة أن يضحك الناس، لكن تنكره الغريب جعله يبدو مضحكاً وحزيناً، وفي الأفلام التي تلت ذلك الفيلم، استمرت شخصية الصعلوك الصغير في النمو من خلال الملابس التي قرر أن يرتديها.

لاقى مظهره نجاحاً كبيراً منذ البداية، لكن أفلامه الأولى لم تكن بها قصة، فقد كانت مليئة بالأحداث، فهذا الرجل الصغير يلعب أدوارا

سريعة الحركة في الاختباء والظهور أمام أعدائه، يسابقهم في شوارع المدينة، يقفز على القطارات، ويسبح في الأنهار، أو أنه كان يقصد أشياء مستحيلة، يظهر أحد الأفلام "شابلن" صغير الحجم يحاول أن ينشل سيدة ضخمة سمينة، وهما يتزلجان على زلاجة بعجلات، فكان منظر "شابلن" وهما يسقطان المرة تلو المرة يثير الضحك، ويجعل الواحد منا يكاد ينفجر من الضحك.

عندما بلغ الثلاثين، كان "شابلن" أعظم وأشهر كوميدي في العالم، ومحبوبـًا جداً، وأصبح يتقاضى آلاف الدولارات نظير كل فيلم يمثله، فأسس شركته الخاصة لإنتاج الأفلام، وكان يكتب وينتج أفلامه الخاصة، وأينما ذهب كانت الجماهير ترحب به، وعمل بجد واجتهاد وكان له القليل من الأصدقاء المقربين.

وربما يكون سبب بروز الجانب الحزين (للصعلوك الصغير) واضحـًا في الأفلام التي أنتجها، فهذا الرجل الصغير أصبح يريد ما هو أكثر من الطعام، وسقفا فوق رأسه، لقد أصبح يريد الحب.

في أحد أفلامه الشهيرة (حمى الذهب)، تخادع فتاة هذا الرجل الصغير، ثم تبدأ ترثي لحاله، وتعامله بلطف، فيتناسى ما فعلته لأجل

الحب.

أما الفتاة في (أضواء المدينة)، فهي عمياء، ولأنها لا تستطيع أن تراه، فهي تظنه أروع رجل قابلته في حياتها، ومن ثم تستعيد بصرها لتكتشف كم هو شخصية ساذجة.

لقد أعطى هذا الحزن أفلام "شابلن" عمقـًا في التجربة الإنسانية، لا يستطيع إلا عدد قليل جداً من ممثلي الكوميديا أن يأتوا بمثله.

تزوج "شابلن" عدة مرات، لكنه، وعلى الرغم من كونه غنيـًا ومشهوراً، وصاحب أحلام كبيرة، إلا أنه كان يشيخ قبل أن يشبع رغبته في الحب، ثم تزوج "أونا" حفيدة الكاتب الأمريكي "يوجين أونيل"، ودام هذا الزواج.

ضاق ذرعـًا بأمريكا، حيث عاش هناك لمدة أربعين عامـًا، أصبح خلالها رجلاً عظيمـًا ومشهورا، فانتقل مع زوجته وعائلتهما الكبيرة إلى سويسرا، وكان يصف نفسه بأنه مواطن عالمي، ولا ينتمي إلى بلد محدد، صورت معظم أفلامه المشهورة بين عامي 1920 و1930 إبان السينما الصامتة، لكن بالنسبة للعديدين في معظم أنحاء العالم، كان "شارلي شابلن" ما يزال ملك الكوميديا.

في أواخر سني حياته الطويلة، عاد إلى الولايات المتحدة، وإلى بريطانيا، ليتلقى الجوائز والأوسمة على أعماله في السينما، توفي في سويسرا عام 1977 في يوم عيد الميلاد، عن عمر يناهز الثامنة والثمانين، حيث عم الحزن العالم بأسره لموته.

جومو كينياتا

«ليس هنالك مجتمع من الملائكة، سواء أكان مجتمعاً أبيض أو بنياً أو أسود، كلنا بشر، فمن المؤكد أننا نخطئ، إذا ما أخطأت بحقك فالأمر عائد لك لتسامحني، وإذا ما أخطأت بحقي فالأمر لي لأسامحك. لا يستطيع الأفريقيون أن يقولوا إن الأوروبيين قد قاموا بكل الأخطاء، ولا يستطيع الأوروبيون أن يقولوا إن الأفريقيين قد قاموا بكل الأخطاء، لديكم ما تنسوه كما لدي، والعديد منكم مثل كينيا ومثلي».

لم يكن قد مضى على "جومو كينياتا" غير بضعة أيام كرئيس لوزراء كينيا، عندما ألقى هذه الكلمات على حشد من المستوطنين البيض في منطقة كانت تسمى (مرتفعات كينيا البيضاء).

لقد كانت مناسبة غريبة ومهمة، فالعديد من الناس الذين يستمعون كانوا يكرهون "جومو كينياتا"، وكأنه الشيطان بثياب إنسان، لقد اعتقدوا بأنه عدو لكل البيض في كينيا، وأنه سوف يخرجهم من البلاد ويعيدهم إلى حيث ولد معظمهم، لم يفهموا الطبيعة السمحة لهذا العجوز الأفريقي.

كانت لديهم أسباب جيدة تجعلهم لا يثقون به، فقد كان "كينياتا"

سجيناً قرابة تسع سنوات، إذ اعتقل وأودع السجن من قبل الحكومة الاستعمارية البريطانية في كينيا، ولم تكن فترات حريته طويلة، لذلك فلن يكون أمراً مدهشاً إذا ما لام المستوطنين البيض لهذا الأمر، فهل يعتبرهم كينيين مثله؟ وهل كان مستعداً ليغفر ويسامح؟ ثم سمعوه يقول دعوني أقول لكم، ليست لدى "جومو كينياتا"، أية نية في العودة إلى الماضي، سوف ننسى الماضي، ونتطلع إلى المستقبل، لقد سجنت وعانيت من الاعتقال، ولكن ذلك انتهى ولن أتذكره، دعونا نضم أيدينا معاً، ونعمل من أجل كينيا، وليس من أجل جزء معين منها.

حتى ألد أعداء الاستقلال الأفريقي، كان لا بد له من الإعجاب بالقائد الجديد لكينيا في ذلك اليوم، والحشد الهائل من الناس، الذين لم يريدوا القدوم لسماعه، صفقوا له ورحبوا به بحرارة، لقد أظهر المحارب القديم من أجل حقوق الأفارقة، أنه ينوي أن يكون قائداً لكل الناس، وليس فقط لعرق أو قبيلة معينة، لقد كان مصمماً على توحيد الأمة.

في السبعين من العمر، كان "جومو كينياتا" قد أصبح عجوزاً إبان

توليه رئاسة الوزراء، لكنه كان حكيمـًا، ولا يخشى التغيير، وقد أدهشت قوته وصلابته عندما أصبح أعلى سلطة في البلاد أصدقاءه القدامى، وفي اللقاءات مع السياسيين، وكبار الموظفين، وفي الخطابات مثل الذي ذكرناه آنفـًا، بدأ بإصلاح الخلل الذي خلفته سنوات الصراع على الأطراف المتصارعة.

يبلغ تعداد سكان كينيا حوالي تسعة ملايين ونصف نسمة، أكثر من تسعة ملايين منهم أفارقة، غالبيتهم مزارعين صغار، وهناك عدد كبير من الآسيويين، يتركز معظمهم في التجارة والوظائف الحكومية، وهناك عدد أقل من الأوروبيين، لكن الأوروبيين كانوا يملكون لفترة طويلة معظم أفضل مزارع البلاد، يتحكمون بجزء كبير من ثروة البلاد، وكان لهم لفترة طويلة الصوت الحقيقي الوحيد في حكومتها.

ينقسم الشعب الأفريقي إلى عدد من القبائل، التي تختلف في عاداتها ومظهرها، وطرق معيشتها، وأكبر هذه المجموعات هي (الكيكويو)، وهم من أهل الغابات الذين تقع أراضيهم جنوب جبل (كينيا)، وعندما احتل المزارعون الأوروبيون الأراضي الواسعة.

ابتنت البعثات التبشيرية المسيحية مدارس بينهم، وعلمت الكثير

من أبناء (الكيكويو) نوعـًا أوروبيـًا من التعليم، ولهذا السبب كان (الكيكويو) متقدمين سياسيـًا على القبائل الأخرى.

في وقت مبكر مثل عام 1920، عندما كان معظم الأفارقة في كينيا يهتمون فقط بعائلاتهم وقراهم، وجني محاصيلهم، كان شباب (الكيكويو) يشكلون جماعة سياسية تسمى (جمعية كينيا المركزية)، وتهدف إلى استعادة حقوق (الكيكويو) على الأراضي الأوروبية، ورفع أجور العمال من (الكيكويو)، وبدأوا أيضـًا بإنشاء مدارس لهم مستقلة عن مدارس البعثات الكنسية، لأن البعثات التبشيرية حاولت أن تبعد أبناءهم عن كثير من عاداتهم القبلية القديمة، فما كان من هؤلاء الشباب، إلا أن أصروا أن هذه العادات تشكل جزءاً مهمـًا من حياتهم الأسرية والاجتماعية، وطالبوا بحقهم في انتخاب أفارقة لعضوية المجلس التشريعي الذي يحكم كينيا، عندها كان "جومو كينياتا" شابـًا في حوالي الخامسة والثلاثين، وسكرتيراً لهذه المجموعة، وأصدر أول صحيفة كينية أفريقية.

تعلم "كينياتا" في البعثات التبشيرية، ثم عمل في مكتب في مدينة نيروبي، وفي عام 1928 زار بريطانيا لأجل جمعية كينيا المركزية، وفي

عام 1932 غادر كينيا مرة أخرى ليتجول في أوروبا، قبل أن يستقر في بريطانيا، حيث بقي هناك أربعة عشر عامـًا.

وعلى الرغم من أنه تزوج عدة زوجات في كينيا حسب عادات قبيلته، إلا أنه عاد وتزوج من معلمة مدرسة إنجليزية أثناء وجوده في بريطانيا، وعقد صداقات مع الإنجليز من مختلف الأجناس والطبقات، ودرس في كلية لندن للاقتصاد، وربما يكون هذا هو السبب الذي جعله -وهو سجين- يتفهم البيض بشكل لا يشاركه فيه إلا القليل من الأفارقة.

في عام 1938، ظهر كتابه (مواجهة جبل كينيا)، وكان في ذلك الوقت من غير المعتاد أن تدرس القبائل الأفريقية وعاداتها من قبل أحد أبنائها، قدم "كينياتا" كتابه إلى الشباب الأفريقي، لجعلهم على صلة دائمة بروح ماضيهم الأفريقي، من خلال النضال لأجل حرية أفريقيا، والإيمان الراسخ بأن الموتى والأحياء، والذين لم يولدوا بعد، سوف يتكاتفون لإعادة بناء المقدسات المدمرة.

لقد قصد من هذا اطلاع العالم أن لدى الأفارقة طريقة في المعيشة تجعلهم فخورين بها، كما أنه قد مهد الطريق أمام (الكيكويو)

للمطالبة بالمزيد من الأرض، والحرية، والقوة في بلادهم.

لم يقبل المستوطنون الأوروبيون الصورة التي رسمها "كينياتا" للماضي، فبالنسبة لهم، يختلف التاريخ الكيني، فالكثير منهم عملوا بجد مع آبائهم وأجدادهم، ولفترة طويلة لإنشاء المزارع الواسعة والتي لم تكن من قبل، فقد وجدوا بلداً قاحلا فارغـًا، وحولوه إلى حديقة غناء، فأعطتهم الحكومة حق تملك الأراضي، بدا لهم الأمر الآن أن معظم الأفارقة قانعون بحكم البيض لهم.

فقط شباب (الكيكويو) هم الذين كانوا يطالبون علانية بالتغيير، لذلك، فقد اتهموا قادة (الكيكويو) مثل "كينياتا" بالتسبب في إثارة المتاعب التي بدأت.

تسارعت الأحداث بعد عودة "كينياتا" إلى كينيا عام 1946، وسرعان ما بدأت جمعية (الماو ماو) السرية عملها المفزع، فبدأ أعضاؤها بمهاجمة وقتل المزارعين، وخدمهم المخلصين، وبما أن الحركة كانت تهدف إلى إخراج مالكي الأراضي الأوروبيين من كينيا، فلم يشترك فيها إلا أعضاء من قبيلة (كيكويو).

خلال السنوات القليلة اللاحقة، قتل العديد من الأوروبيين

والآسيويين، وفي بعض الأحيان بطرق مفجعة، لكن أكثر الذين عانوا من ذلك كانوا هم (الكيكويو) أنفسهم، فأولئك الذين رفضوا الانضمام إلى (الماوماو) قتلوا أبشع قتلة، وآخرون سجنوا أو قتلهم جنود الحكومة، اعتقل "جومو كينياتا" وأرسل إلى السجن لانتمائه إلى (الماو ماو)، ولكونه أحد قادتها، وحتى الآن لم يثبت أي دور لعبه - إذا كان قد لعب دوراً في حركة (الماو ماو)-، ولكن في ذلك الوقت، اشتبه معظم الأوروبيين أن له يداً في الحركة التي كلفت أرواحًا عديدة.

لحسن الحظ، فقد كان لكينيا قادة من البيض والسود، وبإمكانهم رؤية جانبي الموضوع، ويعتقدون أن الأفارقة والآسيويين والأوروبيين يحتاجون بعضهم البعض، ويمكنهم أن يتعلموا احترام حقوق بعضهم البعض.

وبما أن الأفارقة كان عددهم يفوق عدد الأجناس الأخرى عشر مرات، فكان من الواضح أنه لا بد لهم من الحصول على معظم الأصوات في الانتخابات، ولكنهم لا حظوا أن الأجناس الأخرى لديها الثروة والتدريب والخبرة، والتي كانت ذات قيمة كبيرة بالنسبة لهم.

استغرق الأمر عدة سنوات لتسهيل طريق الحكومة الذاتية في كينيا، لكن، عندما حان الوقت للجميع لانتخاب قادتهم، صوتوا إلى جانب حزب "كينياتا"، وجعلوه رئيساً للوزراء، وسرعان ما ألقى ذلك الخطاب الداعي إلى السلام على المستوطنين البيض، كما عين رجالاً من البيض في مراكز مهمة في حكومته، وفوق ذلك كله، أراد أن يوحد كينيا، بوجود كل أطرافها المختلفة.

كان هناك فرح عظيم بيوم الاستقلال عام 1963، خلال سنوات الكفاح لأجل الاستقلال، اعتادت الجماهير الأفريقية أن تطلق صرخة اسمها (أوهورو)، والتي تعني الحرية، أما الآن، وقد حصلوا على حريتهم، فقد حث "كينياتا" شعبه على تذكر المهمات الصعبة التي أمامهم، فلديهم الكثير لعمله من أجل بناء أمة جديدة، ويمكنهم النجاح فقط إذا ما ساعد الجميع، طلب منهم أن يستعملوا صرخة جديدة، وهي الكلمة التي تستعملها مجموعات العمال عندما يرفعون حملاً ثقيلاً (هارامبي)، وتعني لندفع جميعاً معاً، ولم تكن فكرة سهلة لتوضع قيد التنفيذ.

منذ عام 1963، أجبر العديد من الأوربيين والآسيويين على ترك

البلاد التي اعتبروها بلادهم، لكن في يوم الاستقلال، كانت الجماهير الحاشدة تصرخ تلك الكلمة التي علمهم إياها "جومو كينياتا"، كانت هناك حشود مؤلفة من عدة قبائل وأجناس، ولم يكن ما يصرخون به هو صوت رجل واحد، أو قبيلة واحدة، أو جنس واحد، أو أمة، لقد كان (هارامبي)، (هارامبي)، (لندفع كلنا سوياً).

بقي "جومو كينياتا" رئيساً للوزراء، وفيما بعد رئيساً لكينيا لمدة خمسة عشر عاماً، حتى وفاته في شهر آب من عام 1978.

لقد كان شخصاً محترماً في كافة أنحاء أفريقيا والعالم، كزعيم مسالم قوي لاستقلال أمة، وبقي أباً لشعبه حتى النهاية.

كان آخر يوم في حياته مشغولاً وسعيداً بالنسبة لرجل تجاوز الخامسة والثمانين، فقد استضاف سفراء بلاده في الداخل والخارج، وقام بقيادة السيارة في جولة عبر القرى الساحلية، وكان يبتسم، وظهر أنه بصحة جيدة عندما عاد.

في صباح اليوم التالي، صدم خمسة عشر مليوناً من سكان كينيا صدمة كبيرة، بعد أن علموا أن الجد الكبير قد توفي أثناء نومه.

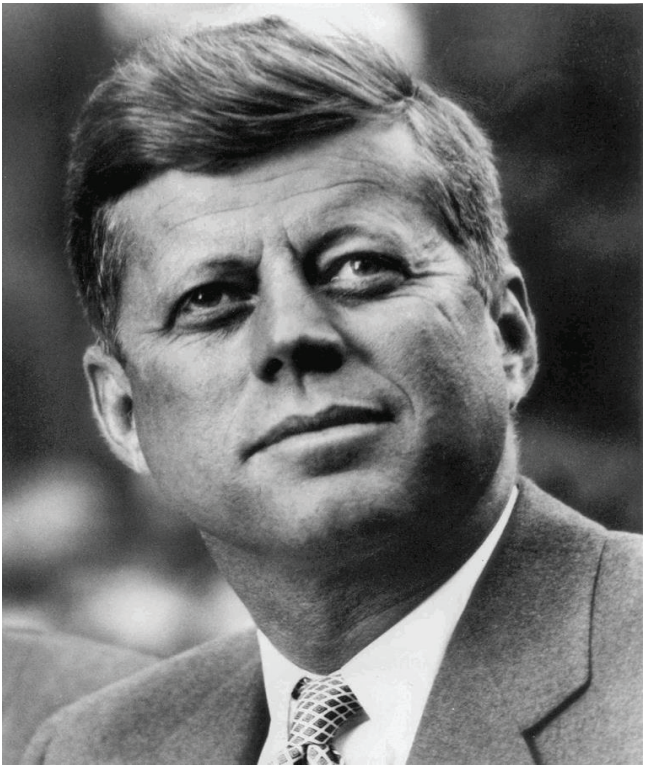

جون كيندي

كانت هناك مباراة بكرة القدم، تجري بعد ظهر أحد الأيام الباردة عام 1937، كان اللاعبون من طلاب جامعة هارفارد، التي تقع قرب بوسطن في الولايات المتحدة الأميركية، وكرة القدم الأميركية لعبة قاسية، من السهل أن تصاب بالأذى خلالها، واللاعبون عادة هم من الشباب الأقوياء، صلبي العود، ولكن في هذه اللعبة كان هناك أحد اللاعبين طويلاً ورفيعـًا، ولم يكن ثقيلاً بما يكفي للعبة كرة القدم، لكنه كان يرنو إلى النجاح على الرغم من ذلك.

كان يحب الألعاب الخارجية، ويمارس معظمها، فكل ما يقوم به، يقوم به من أعماق قلبه، لقد كان "جون فيتزجيرالد كيندي"، والذي سيصبح بعد ثلاثة وعشرين عامـًا من هذا التاريخ رئيسـًا للولايات المتحدة.

مع ازدياد حمى الاستمتاع باللعب، هجم الجميع على الكرة، فسقطوا فوق بعضهم على الأرضية الصلبة القاسية، فكان "جون كيندي" في الأسفل، نهض الآخرون مستعدون لإكمال اللعبة، وبقي هو على الأرض، في البداية كان من الصعب عليه الحركة، شعر وكأن شيئـًا التوى في ظهره، ولم يستطع تحريك يديه أو قدميه، نهض معتدلاً

ببطء على قدميه، والآلام الحادة تمزق ظهره، لكنه رفض أن يساعده أحد وهو خارج من الملعب في ذلك اليوم، تأذى ظهره بشكل سيء، مما سبب له المشاكل بقية حياته، لكن قليلا من الناس في ذلك الوقت، أو فيما بعد، عرفوا ما يقاسيه هذا الرجل الجذاب، المشغول دائماً من آلام، إذ لم يكن من صفاته الاستسلام .

ولد "جون كيندي"، وكما يقول المثل (وفي فمه ملعقة من ذهب)، وكان والده "جوزيف كيندي" رجل بنوك، ثرياً، وأمه "روز" وهي ابنة سياسي معروف من بوسطن، تلقت تعليمها في فرنسا، وكان لدى "جون كيندي" ما يكفي لكي يدفع لكل واحد من أبنائه التسعة مليون دولار عندما يبلغ الواحد والعشرين من العمر، لم يكن يتوجب على "جون" أن يكافح، فليس عليه أن يعمل ليعيل نفسه.

كان والداه قد ربيا أولادهما على الاستفادة من حياتهم، بغض النظر عن الثروة القادمة إليهم، وعلموهم أن يناضلوا بكل قوتهم لأجل ما يؤمنون به، وألا يخشوا المنافسة، علموهم أن يواجهوا الحياة بشجاعة ودون شكوى، وعلى الرغم من أن "جون" قد حصل على أفضل طبيب يمكن أن توفره النقود، إلا أنه لم يحظ بنعمة الصحة

الجيدة، والشفاء التام.

كانت عائلة "كيندي" عائلة حية، يتشاجر أبناؤها فيما بينهم كما يفعل معظم الأطفال، لكنهم كانوا مخلصين لبعضهم البعض، يعود أصلهم إلى عائلة أيرلندية، ويتبعون الكنيسة الكاثوليكية، وكان دينهم مهما بالنسبة لهم، وتعلموا منذ الطفولة أن يدافعوا عن معتقداتهم، لكون الولايات المتحدة بلداً بروتستانتيـًا «معظم سكانه من البروتستانت».

كان الوالدان "كيندي" طموحين بالنسبة لأبنائهم، فلا شيء يبدو مستحيلاً، إذ أن أجدادهم وصلوا إلى أمريكيا مفلسين، وغير متعلمين، وجمعوا ثروتهم وهما نفساهما عملا بجد لإعطاء أبنائهما فرصة جيدة في الحياة، فمن يدري ماذا يمكن أن يفعل "جون" وأخوه وأخته؟.

تطلع الأطفال إلى أخيهم الأكبر "جو" ليقود لهم المسيرة، ومثل كل الأطفال الأميركيين، فقد كان يأمل أن يكون رئيسـًا ذات يوم، كان سريع الغضب، وطالبـًا جيداً، وقائداً موثوقـًا به، درس ليكون محاميـًا وبدا واثقـًا من أنه سياسي مثل أجداده.

أما "جون"، فكان أكثر هدوءاً، يحب الكتب، ويدرس على الرغم

من أنه لم يحصل على علامات كاملة في المدرسة مثل أخيه، فكان يبدو أنه سيصبح معلماً، أو كاتباً.

عندما كبر الأولاد، بدأوا في التنقل بين الدول الأجنبية، فقضى "جون" الصيف في إنجلترا عندما كان في الثامنة عشرة من عمره، وعندما كان في العشرين سافر عبر أوروبا مع أحد أصدقائه، وكان ذلك عام 1937، وأوروبا تقترب من الحرب العالمية الثانية.

لم يكن معظم الأميركيين يهتمون بما يجري خارج الولايات المتحدة، لكن عندما عاد "جون" إلى هارفارد بدأ يهتم بشكل جدي أكثر بالتاريخ والسياسة، وكان ما يزال يقضي أكثر الوقت خارجاً يمارس السباحة وركوب البحر.

في عام 1938، عين "جوزف كيندي" سفيراً للولايات المتحدة في لندن، فحلق به "جون" في ذلك الصيف، ثم عاد في الربيع أيضاً.

كانت الحرب على وشك أن تضع أوزارها، مما غير حياتهم جميعاً، وسنحت فرصة لا تعوض لابن السفير كي يتعلم ويتعرف على ما يحدث حوله، إذ أنه كان يحمل الرسائل والمعلومات لوالده من بلد إلى آخر، وغادر ألمانيا قبل أيام عدة من بدء الحرب.

كان من الممكن أن يكون تاريخ أمريكيا مختلفاً كلياً، لو أن "جو كيندي" لم يمت خلال الحرب، فقد كان من المتوقع أن يكون هو الرئيس، إلا أن الطائرة التي كان يركبها انفجرت عام 1944 فوق سواحل فرنسا، وقتل في هذا الحادث.

انضم كلا الشابين إلى الخدمة العسكرية قبل أن تدخل أمريكيا الحرب، قاتلا بشجاعة عظيمة، وتعرض "جون" نفسه للموت عندما غرق قاربه نتيجة عملية معادية في المحيط الباسيفيكي، وتاه هو ورجاله مدة أسبوع كامل، واعتقد بأنهم قد غرقوا، لكن "جون" أنقذ نفسه ورجاله ببسالته وحسه القوي بالمسؤولية، فما كان ليستسلم ما دام هناك حياة وقوة، وعملية هروبهم هي بحد ذاتها قصة ممتعة، إذ ما كاد قاربهم يغرق تحتهم، حتى قرر الرجال ألا يستسلموا لعدوهم، وذلك باللجوء إلى جزيرة قريبة، وبدلاً من ذلك، توجهوا نحو جزيرة أخرى تبعد عدة أميال، فطافوا على ألواح إلى الشاطئ، وكان أحد رفاقه قد جرح، فسحبه "جون" -والذي كان سباحاً ماهراً- بواسطة حبل أمسكه بأسنانه حتى وصلوا الجزيرة، كان مرهقاً تلك الليلة، بعد ما يقرب من اثنتي عشرة ساعة في الماء، لكنه مع ذلك سبح مرة أخرى

للبحث عن نجدة، واستمر بالمحاولة مرة تلو الأخرى لمدة أسبوع للحصول على نجدة لرجاله الأحد عشر، الذين لا طعام ولا ماء لديهم، وأخيراً اكتشف أحد سكان الجزيرة الأصليين، والذي ثبت أنه صديق للأمريكان، فحمل رسالة منهم أدت إلى قدوم قارب أمريكي لإنقاذهم، بعد أن وهنت أجسادهم، وأصابهم المرض، وما كانوا ليستمروا على قيد الحياة مدة أطول من ذلك.

لقد جلبت شجاعة "جون" له التقدير، لكن كان لا بد له من أن يضحي بقوته، فقد بقي مريضـاً لمدة تزيد عن عام بعد إنقاذه، وأجبر على التقاعد من البحرية.

كانت الحرب على وشك أن تنتهي، لكنه كان وقتـًا عصيبـاً بالنسبة له، إذ علم أن أخاه وزوج أخته قد قتلا، كان على "جون" أن يحدد ماذا سيفعل بعد ذلك، فذهب إلى اجتماع سان فرانسيسكو الذي ابتدأت منه منظمة الأمم المتحدة كمراسل صحفي، فقد كان حدثـًا عالميـاً عامـًا، وعندما عاد إلى بوسطن قال له والده أن أحد أعضاء الكونغرس من ولايتهم (ماساشوستس) سوف يترك مقعده، فلماذا لا ترشح نفسك لانتخابات الكونغرس يا "جون"؟.

فكر "جون" بالأمر، وقرر أن يحاول، بدا من المستحيل أن يتم انتخابه، فقد كان شاباً غنياً، ولا يملك خبرة حتى تكون لديه فرصة حقيقية في الفوز، وهناك تسعة مرشحين آخرين، والمنافسة على أشدها.

وعلى الرغم من أنه كان طويلاً وقوياً، ويملك عينين براقتين، وابتسامة ودودة، فقد كان نحيفاً وشاحباً، ويبدو ضعيف البنية.

كانت هناك نقاط لصالحه، أولها شجاعته، وثانيها صدقه، إذ أن (ماساشوستس) قد نالت حصتها من السياسيين غير الصادقين، وقد ساعدت أموال عائلته في جعله معروفاً إلى أكبر قطاع ممكن من الناس، كما أن عائلته الكبيرة اتحدت في إلقاء الخطب، وإقامة المناسبات العامة لصالحه، وساعدته في الفوز بالكثير من الأصوات.

لكن أكثر هذه الأمور تأثيراً، كان تصميم "جون" نفسه على النجاح، كما كان دوماً، إذ لا شيء يمكن أن يوقفه، عمل بجد واجتهاد، وكان لا ينام إلا قليلاً، ذهب إلى المنازل والمتاجر والمصانع والفنادق، وأي مكان يمكنه أن يقابل الناس فيه ليصافحهم، ووعد بأن يعمل لأجل ظروف أفضل للعمال، وتحسين الأجور،

وإيجاد المساكن، والرعاية الطبية، ولم يكن ابن الرجل الغني متكبراً، فقد أظهر أنه مستعد لمساعدة الناس الذين لا يستطيعون مساعدة أنفسهم، فكان أن انتخب بسهولة، وأرسل إلى واشنطن كعضو في كونغرس الولايات المتحدة.

ومنذ هذا التاريخ، أصبح "جون كيندي" بجديته وجاذبيته، الولد الذهبي للسياسة الأمريكية، ولا يمكن أن يخسر، بعد أن أمضى ست سنوات كعضو في الكونغرس، عاد إلى واشنطن بمركز أكثر أهمية، ألا وهو عضو مجلس الشيوخ (سيناتور) عن ولاية (ماساشوستس).

ثم، وفي عام 1960، انتخب رئيساً لأغنى وأقوى دولة في العالم، وهو في الثالثة والأربعين، وكان أصغر رئيس على البلاد، وأول رئيس يكون كاثوليكياً.

لقد كانت عائلة "كيندي" بشبابها ومواهبها وجاذبيتها، عائلة ملكية، وكانت زوجة "جون" المحبوبة "جاكولين" ملكة شابة، وكانت عائلة "كيندي" ما تزال متماسكة، وأصبح "روبرت" أخو "جون" البالغ من العمر الآن الخامسة والثلاثين، مستشاره المؤتمن، والنائب العام للبلاد.

بعد ذلك بثلاث سنوات، قتل "كيندي"، فقد أطلقت عليه النار عندما كان يركب إلى جانب زوجته بسيارة مكشوفة عبر شوارع دالاس تكساس، لكن ما الذي جعله خلال فترة رئاسته القصيرة، يحتل مثل هذه الأهمية في السياسة الأمريكية؟ ولماذا اشتهر أكثر من الرؤساء الذين عاشوا فترة أطول، وفعلوا أكثر مما فعل؟.

ما الذي يعنيه اسم "جون كيندي"؟ ربما نجد الإجابة في خطابه الذي ألقاه يوم تنصيبه رئيساً إذ قال: لتعلم كل الأمم، سواء أرادوا لنا الخير أم الشر، أننا سندفع أي ثمن، ونتحمل أي عبء، ونواجه أية صعوبة، وندعم أي صديق، ونقابل أي عدو في سبيل ضمان بقاء ونجاح الحرية.

لقد وعد بهذا وبأكثر منه، لقد حاول مع أخيه النائب العام التأكيد على قوانين بلاده، لتعطي السود فرصاً متساوية مع البيض، فقال: لقد حان الوقت ليوضح للجميع، أن لا مكان للعرق أو اللون في القوانين والحياة الأمريكية.

ولقد حاول، -لكن دون أن ينجح-، تحسين الرعاية الطبية لكبار السن، وأراد تحسين التعليم.

أما في المجال الخارجي، فقد أظهر للدول الأخرى، أن أمريكيا مصممة على الدفاع عن حرية تلك الدول، كما تدافع عن حريتها، وكان هذا الكلام صحيحاً فيما يتعلق بمدينة برلين التي زارها، ورحبت به الجماهير العريضة هناك، فقد ساعد في التخفيف من خطر الحرب مع روسيا -وهي أكثر الدول التي تخشاها الولايات المتحدة-، لكن البلدين اقتربا من الحرب خلال أزمة كوبا.

لكن أظهر التاريخ فيما بعد، أن "كيندي" كرئيس للولايات المتحدة، ارتكب أخطاءً فادحة فباسم الحرية قاد بلاده بقوة نحو حرب وحشية لا أمل منها في فيتنام.

لقد كان "كيندي"، هو الرجل الذي وضع بصماته على العالم في بداية الستينات، بدلاً من أولئك العجائز المتعبين الذين قادوا معظم الأمم، نجم جديد يشرق، شاب موهوب متألق شجاع، يقوم بالأمور على خير وجه، اختار حياة السياسة القاسية، لأنه أراد عالماً أفضل للجميع، لقد جعل الناس -الأمريكيين على وجه الخصوص-، يحسنون التفكير بأنفسهم، لأنه كان واحداً منهم.

لقد كان يعجب بشكل كبير بالشجاعة التي تجعل الرجال يتصدون

لما يعتقدون أنه صحيح، كتب ذات مرة كتاباً عندما كان يتعافى من مرضه، عن أناس هم أمثلة حية على ذلك النوع من الشجاعة، وقد كان هو نفسه مثالاً على ذلك.

دفع "كيندي" ثمناً باهظاً لاختياره الحياة السياسية، كما أن أخاه "روبرت" المحبوب من قبل الشباب والفقراء، قد دفع نفس الثمن بعده بفترة وجيزة، إذ أن "روبرت" كان يمكن أن يكون رئيساً بدوره، إلا أنه اغتيل بعد ثلاث سنوات فقط، فهل خاطروا -كما يقول البعض- بكل شيء لأجل القوة والطموح وخسروا؟ أم هل اختاروا أن يدفعوا مثل أخيهم "جو" الذي قتل في سبيل بلاده، نفس الثمن المرتفع الذي تتطلبه الحرية ؟؟.

مارتن لوثر كينج

«أن تكون زنجياً في أمريكيا، فهذا أمل ضد الأمل». هذا ما كتبه "مارتن لوثر كنج" في آخر سنة من حياته، إذ أن تقدم الإنسان الأسود في الولايات المتحدة، من مرتبة العبودية إلى مرتبة الحر المتساوي في الحقوق كان تقدماً بطيئاً، وغالباً ما تحطم أمل السود على صخرة اليأس، وأضاف "كنج" يكتب عن السود: يملك الزنجي من الأمور الجيدة أكثر من الأبيض بمرة ونصف، ويملك من الأمور السيئة أكثر من الأبيض بمرتين.

كان غالبية السود يعيشون في بيوت سيئة، ويتلقون نصف الأجور التي يتلقاها البيض، ونسبة العاطلين عن العمل بينهم ضعفي النسبة بين البيض، ونسبة وفيات الأطفال نتيجة قلة العناية تصل إلى ضعف النسبة عند البيض، وقياساً إلى عددهم، فقد حارب ضعفا مثليهم من البيض في حرب فيتنام، وقتل عدد كبير منهم في هذه الحرب، وكان السود ما زالوا يقومون بالأعمال غير المرضية ذات الأجر القليل، فهي الأعمال الوحيدة التي يمكنهم الحصول عليها .

كان هذا هو وصف الدكتور "كينج" لوضعهم بعد عشر سنوات من التقدم البطيء جداً، وقد قام بأكثر من أي جهد فردي لشخص

آخر، ليجعل من ذلك التقدم أمراً ممكنـًا، فلم يكن من زنوج أمريكيا الجيدين، بل كان واحداً من أعظم رجالها.

عندما اغتيل كان في التاسعة والثلاثين من العمر، وفي أوج قوته وتألقه، وبدا أنه كان يتفهم احتياجات السود، وكيف يحصلون عليها، وكان مصممـًا على ألا يؤذوا الآخرين خلال كفاحهم، فلم يكن ليسمح باستخدام الأسلحة مهما كانت، لقد علم شعبه من السود أن يدافعوا عن أنفسهم، لكن أن يفعلوا ذلك بتفهم وحب لهؤلاء الذين يقفون ضدهم.

إن الحرية لا توهب، بل تنتزع، والحقيقة المرة، أنه لا البيض ولا السود قد قاموا بما فيه الكفاية لاستقبال يوم جديد من الحرية، حرية تنتزع من خلال الكفاح ضد المعاناة.

إذا أردنا أن نتفهم وضع الزنوج في أمريكيا، فمن الضروري أن نعرف شيئـًا عنهم من التاريخ، ففي القرن الثامن عشر، تم إحضار أعداد كبيرة من العبيد الأفارقة إلى الولايات المتحدة، ليعملوا في مزارع القطن في الولايات الجنوبية، وفي ذلك الوقت، كان معظم الناس يتقبلون فكرة العبودية، ولم يكونوا يفكرون بالظروف القاسية،

واللاإنسانية، التي يقبض فيها على العبيد، ويتم شحنهم إلى العالم الجديد، فقد كانوا يعانون ببشاعة، ويموت الآلاف من الرجال والنساء والأطفال في الطريق.

وبعد أن أصبح العبيد أحراراً تناسوا الكثير عن ماضيهم الأفريقي، فلم يشعروا بالفخر والاعتزاز بلغتهم ودينهم القديمين، فهم لا يعرفون سوى العمل الشاق في مزارع القطن، والمعاناة البشعة من حياة العبودية، أما الدرس الذي تعلموه جيداً، فقد كان إطاعة أوامر أسيادهم، وعدم التذمر، وتقبلوا دين البلاد الجديدة، ولغتها، وقيمها، لكن بلادهم الجديدة استمرت في رؤيتهم فقط كزوج من السواعد القوية، أو ظهر قوي للعمل.

خلال السنوات المئة التالية، انتشر الزنوج في كافة أنحاء الولايات المتحدة، وكانت ظروفهم في الولايات الشمالية أفضل منها في الجنوب، لكن مع تدفق أعداد كبيرة من الفقراء من بلدان مختلفة إلى أمريكيا، وتكوين ثروات، بقي السود يحصلون على أسوأ الوظائف والمساكن والمدارس، ولم يتوقعوا أي شيء أكثر من ذلك.

لكن أمريكيا بلاد غنية، فبدأ السود أخيراً بالمطالبة بحصة كبيرة من

ثروتها -وفي أجزاء عديدة من البلاد-، وبخاصة في الجنوب، تم رفض مطالبهم بوحشية، وكان ينظر لهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، ففي الولايات الجنوبية، لم يكن بإمكانهم أن يأكلوا في نفس المطاعم، أو يغسلوا في نفس غرف الغسيل، وأن يسافروا في نفس المقاعد في الحافلات والقطارات، وحتى لو أنهم كانوا أغنياء، لم يكن مسموحـًا لهم العيش مثل بقية الأمريكيين.

بدأ "مارتن لوثر كنج" كفاحه الشعبي لأجل حقوق السود في عام 1956، عندما كان في السادسة والعشرين، وكان قد عاد للتو إلى الجنوب، بعد أن أنهى تعليمه في الجامعات الشمالية، وكان مثل أبيه وجده قسيسـًا مؤمنـًا بالمسيحية، وتقع (كنيسته السوداء) في مونتغمري- ألباما.

في أحد الأيام، كانت هناك امرأة تدعى "روزا باركس"، تسافر عائدة إلى منزلها من العمل في إحدى حافلات مونتغمري، وكانت متعبة بعد يوم حافل بالتعب، وجلست في أحد المقاعد المخصصة للسود في مؤخرة الحافلة، إذ كان البيض يستعلمون المقاعد التي في المقدمة، لكن الحافلة كانت مزدحمة في تلك الليلة، ولم يكن هناك

مقاعد كافية للجميع.

صعد أحد البيض ولم يجد مقعداً فارغـًا، فطلب السائق من السيدة "باركس" أن تنهض وتعطيه مقعدها، ومع أنها لم تستطع بعد ذلك أن تتخيل ما الذي جعلها تتصرف بتلك الطريقة -فهي عادة تفعل يطلب منها- إذ رفضت أن تتخلى عن مقعدها، فطلب السائق شرطيـًا، واعتقلت وسيقت إلى السجن.

كان السود معتادين على مثل هذه الأحداث في مونتغمري، وكانوا يعلمون أنهم لا يمكن أن يتوقعوا شيئـًا غير هذا، لذا، فقد رضوا بالواقع، لكنهم هذه المرة غضبوا فجأة، فاجتمعت الحشود في الشوارع والكنائس، وعندما سمع "د. كنج" بذلك قال: «يجب أن نتوقف جميعـًا عن استخدام الحافلات». وكان هذا ما قصده بـ(أفعال مباشرة دون عنف)، وهي أفعال تعبر عن مشاعر الناس القوية دون مهاجمة أحد، وقد استوحى الفكرة من "غاندي" الذي أعجب به، وكان يضع صورته فوق مكتبه.

انتشرت الفكرة انتشار اللهب، فلأول مرة يتحد السود لأجل هدف عام، ومع أنهم اعتادوا استعمال الحافلات بكثرة لحاجتهم إليها،

لكنهم عانوا بما فيه الكفاية، فرفضوا ركوب أية حافلة تفصل مقاعدها بين السود والبيض، وصاروا يشتركون في ركوب سيارات بعضهم البعض، وكان الكثير منهم يضطرون للسير أميالاً وأميالا كل يوم للوصول إلى أعمالهم، واستمر هذا الوضع قرابة عام، وعندما كانت سيدة عجوز تسأل ما إذا كانت تمانع في المشي لمسافة طويلة، كانت تقول أنها لا تمانع، مع أن قدميها متعبتان، إلا أن روحها كانت منتعشة، فقد كان الناس ممتنون لأنهم وجدوا طريقة للتعبير عن غضبهم ومرارتهم.

كان السود يحتاجون إلى قائد قوي لا يخاف، وكان "مارتن لوثر كنج" يعلم أية أخطار تهدده عندما وافق على أن يكون قائدهم، وقد طلب من جماعته السود ذلك الأحد، أن يحبوا بعضهم بعضـًا، وأن يفكروا برفق في أعدائهم، ولكن هذا لم يكن سهلاً في مونتغمري، لأن كل البيض، وكل رجال الشرطة كانوا أعداءهم.

في النهاية، حققوا ما أرادوه، فلم تعد الحافلات مقسمة، إذ قررت المحكمة العليا في البلاد، أن إيجاد مقاعد منفصلة للبيض والسود هو أمر مخالف للقانون، وخسرت شركات الحافلات مبالغ كبيرة من

المال.

لكن الاضطرابات لم تنته، فقد أطلق البيض الغاضبون النار على الحافلات، وعلى أربع كنائس للسود في المدينة، وألقيت قنبلة على منزل الدكتور "كنج" وكادت أن تقتل عائلته، كما أن منزل قسيس أبيض اتفق مع أصدقائه السود في الرأي قد تم نسفه.

خلال السنوات العشر التالية، قاد "مارتن لوثر كنج" الصراع لأجل الحصول على (حقوق مدنية) كاملة للزنوج في الجنوب، فهناك الكثير منهم، ولا يمكن هزيمتهم إذا ما صمموا على المقاومة، وأخبرهم "كنج" أنه إذا ما سار مئة ألف من السود في مظاهرة إلى نقطة مهمة في مركز المدينة، فلسوف يجعلون من المستحيل على معظم موظفي الحكومة الأغبياء (الشرطة) أن يستعملوا السلاح ضدهم.

ذهبوا بأعداد كبيرة، وجلسوا في المطاعم التي لا ترحب بالسود، ورفضوا المغادرة إلا بعد أن جاءت الشرطة واقتادتهم، وبدأوا يفهمون الناس أن لهم الحق، وعليهم واجب انتخاب مسؤوليهم بأنفسهم، فالكثير منهم كانوا خائفين مما قد يحصل لهم من جراء عدم التصويت.

ازداد غضب البيض الجنوبيين، ففي ولاية المسيسيبي لوحدها قتل أكثر من أربعين مدنياً من السود والبيض، وجرح أناس من كلا الطرفين، ولم يعاقب أحد، كما أن أكثر من خمسين كنيسة للسود أحرقت أو فجرت، وذات مرة قتلت أربع فتيات صغار، كان البيض يخشون بشدة مما قد يفعله السود إذا ما اكتشفوا قوتهم الذاتية.

ولأن معظم الصراع -كما يقول "كينج"- لحصول السود على المساواة، يجب أن يخوضه كل شخص أسود داخل نفسه أولاً، فعليه أن يقول أنا شخص ما، أنا شخص، أنا إنسان ذو قيمة وشرف، لي تاريخ غني مشرف، على الرغم من قساوة ذلك التاريخ، على كل رجل أن يفوز بحقه في أن يدعى رجلاً في بلد تسميه (غلاما)، ولطالما قال له أبوه: «لا أحد يستطيع أن يجعل منك عبداً إذا لم تكن تفكر مثل عبد».

كانت قوة حركة الحقوق المدنية تكمن في المظاهرات السلمية، ففي السابق قاتل زعماء السود من أجل الحصول على العدالة عبر المحاكم القانونية، بينما كان الناس ينتظرون ويأملون.

لقد أدت المظاهرات الكبيرة التي قادها "د. كينج" عام

1901وأتباعه إلى أن تضع كل شخص في حقل العمل، حتى الأطفال تظاهروا مطالبين بحقهم في الحرية، وكما حدث لآبائهم، فقد تم اعتقالهم بأعداد كبيرة، وأرسلوا إلى السجون، وكان "د. كينج" قد سجن عدة مرات.

في عام 1963، قاد مظاهرة عظيمة إلى العاصمة واشنطن DC مائتان وخمسون ألف شخص معظمهم من البيض، اجتمعوا في قلب البلاد (العاصمة) ينشدون للحرية (سنظفر ذات يوم).

كان "مارتن لوثر كنج" هو المتحدث الرئيس، فتحدث إلى هذا الحشد الهائل، كما لم يتحدث من قبل، فرمى بالخطاب الذي كان قد أعده، وتحدث بما جادت به قريحته: «أقول لكم اليوم، على الرغم من أننا نواجه مشكلات اليوم وغداً، فلا زال لدي حلم -كان يحلم ببلد يتساوى فيه الرجال-، أحلم أن أطفالي الأربعة سيعيشون ذات يوم في بلد لا يحكم عليهم من خلال لون بشرتهم، وإنما بقوة شخصياتهم، بمثل هذا الإيمان يمكننا أن نعمل سويـًا، وأن نناضل سويـًا، وأن نسجن سويـًا، وأن ندافع عن الحرية سويـًا، ونعلم بأننا سنكون أحراراً ذات يوم».

كان "جون كيندي" كما عرفنا سابقـًا، يعجب بمثل هذه الشجاعة التي ينتج عنها عمل، فقدم دعمـًا عظيمـًا لعائلة "د. كنج" عندما كان في السجن، وكانت وفاته فيما بعد عام 1963 كارثة بالنسبة لهم جميعـًا.

كان "مارتن لوثر كينج" يعلم تمامـًا أن ما حدث لـ"كيندي" يمكن أن يحدث له أيضـًا، وكان يردد دائمـًا: المجتمع غير العادل هو مجتمع مريض يقتل فيه الرجال الطيبون دون سبب.

وقد هوجم ذات مرة، وكاد يقتل، إذ هاجمته امرأة سوداء بسكين، لكنه تقبل هو وعائلته بشجاعة حقيقة أنه قد يقتل في أي يوم أثناء وجوده بين الحشود.

في عام 1964، فاز بأعظم شرف[1] يمكن أن يفوز به رجل، لقد فاز بجائزة نوبل للسلام لقيادته للصراع السلمي والمساواة العرقية، يومها كان فقط في الخامسة والثلاثين، وكان رابع رجل ملون (غير أبيض) يفوز بالجائزة خلال أربع سنوات.

---

(1) حسب رأي المؤلفة، وإن كنا لا نقرها بذلك، لكن للأمانة العلمية نقلناها كما هي. (المترجم).

كان الشعور بالغضب يزداد لدى العديد من السود على التقدم البطيء لقضيتهم، وأرادوا استعمال العنف للوصول إلى نتائج، لكن "كنج" لم يوافق الحركة الجديدة على ما أسموه (القوة السوداء)، وقال: (اللاعنف هو قوة)، لكنه الاستعمال الصحيح والأمثل للقوة، من خلاله ننقذ البيض وننقذ الزنوج.

وكما حدث مع "غاندي"، فقد شاهد الحركة التي بدأها وقد أخذت بالانقسام، وبدأت جماعات مثل (حركة القوة السوداء) تيأس من إمكانية تعايش البيض والسود في بلد كهذا بسعادة معـًا، وبدا صبرهم ينفذ.

أراد "كينج" أن يصل إلى البيض كما السود، فكان يقول: يملك السود مفتاحـًا واحداً من مفاتيح التغيير السلمي، أما المفتاح الآخر فهو بأيدي البيض.

اصبح "كينج" قائداً ليس فقط للبيض، وإنما لكل الفقراء في الشمال كما في الجنوب.

وكان يخطط لمسيرة كبرى للفقراء عندما اغتيل في الرابع من أبريل 1968، وفي هذه المرة، كان المهاجم من البيض، لقد أمضى الدكتور "كنج" حياته القصيرة وهو يحاول أن يجد طريقة أفضل لمواجهة

المشاكل، بدل استعمال السكين أو البندقية، لقد أعطى لآلاف الناس القوة التي يملكها بشكل كبير، القوة على حب الآخرين حتى في وجه الكراهية، وعدم الظلم، والعدالة، والموت.

القراءة للجميع 18

يأتي برنامج مكتبة الأسرة الأردنية، بهدف توفير طبعة شعبية زهيدة الثمن، تكون في متناول يد الأسرة الأردنية في كل بيت.

ويهدف هذا البرنامج إلى تعميم الثقافة والمعرفة، وربط الأجيال بالتراث الثقافي والحضاري للأمة، والتواصل مع الثقافات الإنسانية.

إن الكتاب الجيد هو سفر باتجاه الذات ومعرفتها ومعرفة الآخر وهو ومضة لإضاءة عصرنا هذا، من أجل إنجاز رسالتنا التنويرية، القائمة على مشروع الدولة الأردنية منذ انطلاقة الثورة العربية الكبرى ومشروعها النهضوي.

لقد تباينت إصدارات هذه السلسلة في موضوعاتها، ومضامينها، واتجاهاتها، ورؤاها آملين أن تقدم للقارئ زادًا معرفيًا متكاملاً، وتلبي رغبات وحاجات مختلف الشرائح الاجتماعية.

الكتاب متوفر على منصة الكتبا
https://alkutba.gov.jo

هاتف: 5696218 962 + فاكس: 5691640 962 + ص.ب: 6140 عمّان - الأردن
E-mail:info@culture.gov.jo website:www.culture.gov.jo

السعر : (٣٥) قرشاً